العدد 12 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية كانون 2 2026
No. 12 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences January 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

صورة المشرق الإسلامي في ضوء كتاب البداية والنهاية لابن كثير

أ.م. د. أميمة قاسم يحيى
جامعة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات
الكلية المعلوماتية الطبية الحيوية

خلاصة البحث:
يقوم هذا البحث بدراسة تحليلية لتصورات المؤرخ ابن كثير الجغرافية والسياسية والعسكرية لإقليم المشرق الإسلامي من خلال موسوعته التاريخية "البداية والنهاية"، ويركز على تحديد مفهوم "المشرق" وحيزه الجغرافي وتقسيماته الإدارية، مع تسليط الضوء على منهج ابن كثير النقدي ومصادره المتنوعة، وكيف رسم صورة للمشرق الاسلامي تتجاوز الوصف الجغرافي الصرف لتشمل أبعاداً سياسية وعسكرية وعقدية وحضارية واجتماعية، راصداً التفاعلات السياسية المعقدة والصراعات الداخلية للقوى التي برزت هناك فيما بينها ومع مركز الخلافة، والاجتياحات الكبرى التي حصلت في المشرق الإسلامي، والمحن التي مرت عليه.
الكلمات المفتاحية: ابن كثير، البداية والنهاية، المشرق الإسلامي، العصر العباسي.

The Image of the Islamic East in Light of the Book Al-Bidaya wa'l-Nihaya by Ibn Kathir

Assistant Professor Dr. Umaima Qasim Yahya
University of Information and Communication Technology
Biomedical Informatics College

Abstract:

This research provides an analytical study of the historian Ibn Kathir's geographical, political, and military perceptions of the Islamic East through his historical encyclopedia "Al-Bidaya wa'l-Nihaya" (The Beginning and the End). It focuses on defining the concept of "the East" and its geographical scope and administrative divisions, while highlighting Ibn Kathir's critical methodology and his diverse sources, and how he drew an image of the Islamic East that goes beyond mere geographical description to include political, military, doctrinal, civilizational, and social dimensions, monitoring the complex political interactions and internal conflicts of the powers that emerged there among themselves and with the center of the Caliphate, the major invasions that took place in the Islamic East, and the tribulations that it went through.

Keywords: Ibn Kathir, Al-Bidaya wa'l-Nihaya, Islamic East, Abbasid era.

المقدمة:

يُعد التدوين التاريخي عند المسلمين مرآةً لا تعكس الوقائع والأحداث فقط، بل والتصورات الذهنية والجغرافية التي شكلت وعي الأمة بهويتها ومكانتها، وفي هذا السياق، يبرز كتاب "البداية والنهاية" للإمام الحافظ ابن كثير(ت ٧٧٤هـ) كواحد من أعظم الموسوعات التاريخية التي لم تكتفِ بسرد الحوادث، بل صاغت رؤية شاملة للكون والتاريخ من منظور عقدي ومنهجي متميز.إن دراسة "صورة المشرق الإسلامي" في هذا الكتاب تنطلق من أهمية هذه البقعة ووجودها التاريخي؛ فالمشرق بمفهومه الحضاري والجغرافي مثّلَ قلب العالم الإسلامي، ومسرحاً لأهم التحولات السياسية والعلمية، ويأتي هذا البحث ليتساءل: كيف رسم ابن كثير معالم هذا المشرق؟ وما هي العناصر المكونة لصورته في ذهنه وفي نصّه التاريخي؟ وماهي العناصر التي غلبت على نظرته للأحداث؟

أهمية البحث: تأتي من مكانة ابن كثير العلمية كمؤرخ فقيه، ومن قيمة كتابه "البداية والنهاية" كمصدر أساس لتأريخ المشرق وتوثيق صراعاته العسكرية والسياسية.

مشكلة البحث :تتبلور مشكلة الدراسة في كيفية تشكّل المعالم الحضارية والسياسية والعسكرية والاجتماعية للمشرق الإسلامي في ذهن ابن كثير، وكيف عكسها في مدونته التاريخية؟ وإلى أي مدى تأثرت هذه الصورة بالظروف السياسية لعصر ابن كثير، وكيف وظّف ابن كثير منهجه في الحوليات والتراجم لرسم ملامح تلك المنطقة.

أهداف البحث:

١. الكشف عن المنهج الذي اتبعه ابن كثير في تدوين أخبار المشرق الاسلامي والمصادر التي استقى منها كتابه.

٢. استخراج الملامح الجغرافية والسياسية والعسكرية والحضارية والاجتماعية التي شكلت صورة المشرق الإسلامي في الكتاب.

٣. بيان أثر العقيدة والبيئة المحيطة بابن كثير في تشكيل حكمه على الأحداث والأماكن.

ولتحقيق الأهداف المرجوة من البحث فقد تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، من خلال استقراء النصوص التاريخية في كتاب "البداية والنهاية" وتحليل الروايات المتعلقة بأقاليم المشرق كما تم تقسيم البحث الى خمسة مباحث وعلى النحو التالي:

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والتعريفي للبحث: وتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بابن كثير ومؤلفاته:

المطلب الثاني: المنهج التاريخي والنقدي في "البداية والنهاية"

المطلب الثالث: مصادر ابن كثير في تدوين أخبار المشرق

المبحث الثاني المشرق الإسلامي في منظور ابن كثير (الجغرافيا، الحدود، والتقسيم الإداري): وقد تضمن مطلبين:

المطلب الأول: تحديد الحيز الجغرافي للمشرق الإسلامي

المطلب الثاني: التقسيم الإداري للأقاليم في كتاب البداية والنهاية

المبحث الثالث: الصورة السياسية والعسكرية للمشرق الإسلامي: وقد تضمن خمسة مطالب:

المطلب الأول: مركزية العراق والشام (بين شرعية الخلافة وقوة السلطة)

المطلب الثاني: بلاد فارس وخراسان (مركز القوة والنزاع السياسي)

المطلب الثالث: بلاد ما وراء النهر

المطلب الرابع: النشاط العسكري ووصف المعارك الفاصلة

المطلب الخامس: الرؤية السياسية عن المشرق الإسلامي في كتاب البداية والنهاية

المبحث الرابع: صورة المشرق في مواجهة الأزمات: وقد تضمن أربعة مطالب:

المطلب الأول: الاجتياح المغولي للمشرق الإسلامي

المطلب الثاني: الاجتياح الصليبي وأثره في بلاد الشام والمشرق الإسلامي

المطلب الثالث: الأوبئة والمجاعات (الأزمات البيولوجية)

المطلب الرابع: الفتن الداخلية والحركات

المبحث الخامس: الصورة الاجتماعية والحضارية للمشرق الإسلامي عند ابن كثير: وقد تضمن أربعة مطالب:

المطلب الأول: صورة الحياة الدينية وتنوع المذاهب

المطلب الثاني: المؤسسات العلمية والحركة الفكرية

المطلب الثالث: البنية الاجتماعية والطبقية

المطلب الرابع: الملامح العمرانية والبيئية

المبحث الأول
الإطار المفاهيمي والتعريفي

إن دراسة أي ظاهرة تاريخية في مدونات القرون الوسطى تستوجب أولاً فهم الأدوات المعرفية للمؤلف، والسياق الجغرافي الذي يتحرك فيه النص، لذا سيكون من الضروري تسليط الضوء على شخصية ابن كثير ومنهجه، وتحديد مفهوم المشرق الإسلامي، واستعراض المصادر التي استقى منها مادته التاريخية، وهذا ما سنقوم به في هذا المبحث.

المطلب الأول: التعريف بابن كثير ومؤلفاته:

هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البُصروي ثم الدمشقيّ، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ فقيه ومؤرخ، كانت ولادته في قرية مجدل بمدينة بصرى في الشام، وانتقل مع أخيه إلى دمشق سنة (٧٠٦ هـ) وارتحل في طلب العلم، وقد اخذ الناس تصانيفه وانتشرت في حياته[١]، وكانت سنة ولادته حسب ما ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ بعد السبعمائة أو فيها[٢] ، تربى رحمه الله في بيت متدين، فقد كان والده خطيباً، وكان ذلك له الأثر الكبير في نبوغه، ونشأ يتيماً حيث مات والده وهو في الرابعة، وقيل السابعة من عمره، وتحولت أسرته إلى دمشق، ونزلت في الدار المجاورة للمدرسة النورية[٣] رباه أخوه الشيخ عبد الوهاب، وبه تفقه في مبدأ أمره[٤] ، توفي رحمه الله في دمشق سنة ٧٧٤ه[٥] ، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الاسلام ابن تيمية بمقبرة للصوفية[٦].

ولقد أشاد ابن حجر بالمكانة العلمية لابن كثير، موضحاً أن رحلته مع العلم بدأت منذ صغره حينما انتقل إلى دمشق في السابعة من عمره بصحبة أخيه بعد وفاة والدهما، وقد برز نبوغه مبكراً بحفظه لمتون هامة مثل "التنبيه" و"مختصر ابن الحاجب"، وتلقى العلم على يد أكابر علماء عصره كالبرهان الفزاري وابن قاضي شهبة والأصبهاني، كما لازم ابن تيمية وصاهر الإمام المزي، ولم يقتصر تميزه على التلقي، بل بدأ التأليف في سن مبكرة، مما جعل شيوخه يثنون عليه، لاسيما وقد عُرف بحدة الذكاء، وقوة الذاكرة، وسرعة الاستحضار[٧].

كما أثنى العلماء على نتاج ابن كثير ومؤهلاته؛ فبينما رأى السيوطي [٨] أن تفسيره يعد نموذجاً لم يسبق إليه، ركز الذهبي[١] على جدارته العلمية بوصفه إماماً محدثاً، متقناً، وثقةً في نقله وفتاواه، مما يعكس شمولية معرفته ودقة تحصيله.

---

(١) الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ)، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ج١، ص ٣٢٠.

(٢) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، تذكرة الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م، ج٤، ص٢٠١.

(٣) ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي، (ت ١٠٨٩ هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط [ت ١٤٣٨ هـ]، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط [ت ١٤٢٥ هـ]، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ج١، ص٦٨.

(٤) ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، (ت ٨٧٤هـ)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٢، ص٤١٥

(٥) العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد خان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد/ الهند، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، (١/ ٤٤٦).

(٦) ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين (ت ٨٤٢ هـ)، الرد الوافر، المحقق: زهير الشاويش (ت ١٤٣٤ هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣ه، ص٩٢، الرقم ٤٨.

(٧) العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ)، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: عبد الله أحمد بن مديحج العلوي الحسيني الحضرمي، الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن – الهند، الطبعة: الأولى (١٣٨٧ - ١٣٩٦ هـ) = (١٩٦٧ - ١٩٧٦ م)، ج١، ص ٣٩.

(٨) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، طبقات الحفاظ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، (ص/ ٥٣٤):

كما أشاد بفضله ومكانته عدد من العلماء والباحثين المتأخرين، فقد لقبه الكتاني بـ(المحدث المتقن البارع)[٢]. ووصفه الشيخ العلامة أحمد محمد شاكر بقوله (إمام عظيم من الأئمة الثقات المتحققين)[٣] . واعتبره ثالث ثلاثة كأن المسند للإمام أحمد بن حنبل - كله على أطراف ألسنتهم وكانوا يعرفونه حقاً [٤].

تعليمه وشيوخه:

تلقى ابن كثير تكوينه العلمي على يد كوكبة من كبار فقهاء وعلماء عصره؛ إذ سمع على أبي نصر ابن الشيرازي، والقاسم بن عساكر، وأبي العباس الحجار، وابن الزراد، وتخرج في علم الحديث بالحافظ المزي وارتبط بعلاقة علمية وطيدة به وصاهره[٥] ، وتفقه على يد الشيخ برهان الدين الفزاري (ت ٧٢٩ه)، كما نهل من علم العلامة كمال الدين الزملكاني[٦] ، أحد أبرز وجوه الشافعية في بلاد الشام، وتأثر تأثيراً عميقاً بشيخ الإسلام ابن تيمية، حيث لازمه طويلاً وتبنى الكثير من آرائه واجتهاداته[٧]، فضلاً عن ذلك فقد تتلمذ على يد المؤرخ والحافظ شمس الدين الذهبي، وخلفه في مشيخة "أم الصالح" و "التنكزية"،[٨] وفي الجانب العملي، تصدّر ابن كثير للتدريس في الجامع الأموي بدمشق، وترك بصمته التعليمية في عدة مدارس ومساجد دمشقية عريقة كالمدرسة النورية[٩].

مؤلفاته:

ألف كثيراً من الكتب المفيدة التي انتفع بها الناس، ومنها ما يلي:

تفسير القرآن العظيم، وهو من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور[١٠] ، طبقات الفقهاء، مناقب الشافعي، البداية والنهاية، اختصار علوم الحديث، التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل، كما خرّج أحاديث مختصر ابن الحاجب، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يتمه، ورتب مسند أحمد على الحروف وضم إليه زوائد الطبراني

---

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، مصدر سابق، (٢/ ٤١٦).

(٢) الكتاني، أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي (ت ١٣٤٥ هـ)، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، المحقق: محمد المنتصر بن محمد الزمزمي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: السادسة ١٤٢١ هـ-٢٠٠٠ م، ص١٧٥.

(٣) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل- أبو الأشبال أحمد محمد شاكر، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، عناية: مكتب الأجهوري للبحث العلمي وتحقيق التراث، إشراف: د. علي محمد ونيس، المشرف العلمي لمكتب الأجهوري، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ، ص٤٦.

(٤) ابن حنبل، أحمد بن محمد (١٦٤ - ٢٤١ هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص٧.

(٥) ابن العراقي، ولي الدين، أبو زرعة، أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين، (٧٦٢ - ٨٢٦ هـ)، الذيل على العبر في خبر من عبر (وهو تذييل لابن العراقي، على ذيل والده على العبر)، حققه وعلق عليه: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولي، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، (٣٩٥/٢)، وابن الزراد هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء ابن الزراد الصالحي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ، ينظر: المصدر نفسه، (٢٠٣/١).

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٦٧/١٤)، برهان الدين الفزاري: هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضبا، برهان الدين أبو إسحاق الفزاري الصعيدي الأصل الدمشقي شيخ الشافعية، مدرس الباذرائية وابن مدرّسها، ولد سنة ستين وستمائة، ينظر: صلاح الدين، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر (ت ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، الجزء:١ – ١٩٧٣، الجزء: ٢، ٣، ٤- ١٩٧٤، وكمال الدين الزملكاني: هو محمد بن علي بن عبد الله الواحد، جمال الإسلام، كمال الدين ابن الزملكاني، الأنصاري السماكي الدمشقي، الشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة، كبير الشافعية في عصره؛ ولد في شوال سنة سبع وستين وستمائة، ينظر: فوات الوفيات، المصدر نفسه، (٧/٤).

(٧) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مصدر سابق، (٣٩٩/٨).

(٨) الحسيني، شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن الدمشقي (ت ٧٦٥ هـ)، ذيل تذكرة الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، مطبوع بآخر: "تذكرة الحفاظ" للذهبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م، ص٣٨.

(٩) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٣٥٥/١٤)، وينظر أيضاً: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج١، ص٤٦٦.

(١٠) الذهبي، محمد السيد حسين (ت ١٣٩٨هـ)، التفسير والمفسرون، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ج١، ص١٧٤

وأبي يعلى[١]، وغير ذلك من المصنفات.

ويُعد كتاب «البداية والنهاية» من أبرز المؤلفات التي عزز بها ابن كثير الدمشقي رصيد المكتبة العربية والإسلامية في مجال التاريخ، يأتي فيه على ذكر الأحداث التاريخية متسلسلة منذ خلق الكون وحتى زمن المؤلف، أي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

المطلب الثاني: المنهج التاريخي والنقدي في "البداية والنهاية"

١. المنهجية التاريخية عند ابن كثير :

اتسم منهج ابن كثير في "البداية والنهاية" بخصلة تشبه منهجه في التفسير والذي كان منهجاً " عقدياً"، فهو يسرد الحادثة ويربطها بما يتعلق بها من الروايات والاخبار التاريخية مما رواه أئمة الحديث [٢] كما اعتمد في ترتيب كتابه على "نظام الحوليات" (ذكر الأحداث حسب السنين)، وهو المنهج الذي ساد في التأريخ الإسلامي الكلاسيكي، يقول ابن كثير في مقدمة كتابه: (فأذكر فيه مبدأ المخلوقات... ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا، ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة)[٣]. إذ كان في بداية كل عام يقول: ثم بدأت سنة .... ويذكر أحداثها المهمة، سواء ما كان يتعلق بالدولة أو الوقائع التاريخية الداخلية والخارجية، ثم يذكر الحروب، والأوبئة، والمجاعات إن وجدت في هذا العام، ثم يتبع كل ذلك ذكر الوفيات في ذلك العام بإيجاز واختصار.

٢. ملامح النقد التاريخي لديه: تميز ابن كثير بتطبيق قواعد المحدثين في نقد الروايات التاريخية،[٤] فكان [٤]فكان يستخدم مصطلحات "الجرح والتعديل" للحكم على الأخبار فيقول " الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صح نقله أو حسن وما كان فيه ضعف نبينه" [٥]، كذلك حرصه على بيان صحيح الاسانيد والمتون وضعيفها وبيان أحوال الرجال [٦] وهو ما منحه صبغة "المؤرخ الفقيه، اذ كان يقول: "والحكم بالصحة أو الحسن على الإسناد لا يلزم منه الحكم بذلك على المتن، إذ قد يكون شاذاً أو معللاً"[٧].

وقد حفل تاريخه بالكثير من التعقيبات على الروايات التي يذكرها متبعاً قواعد طبقها على النصوص التي بين يديه منها إضافة الى قاعدة عرض الروايات على القرآن الكريم والاحاديث النبوية هناك قاعدة تاريخ التشريع، ونجد من خلال روايات السيرة النبوية كثير من الأمثلة تدل على متابعته لتواريخ التشريعات وما نزل من الأحكام، ومن المفيد أن نذكر أن ابن كثير بحكم ثقافته في هذا الجانب نقد بعض المتون مستخدماً معرفته بتواريخ نزول هذا الحكم أو ذاك فقد ناقش ابن كثير رواية ابن هشام في خبر قدوم الأعشى الشاعر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم في سياق أحداث العهد المكي، ومما ناقشه ابن كثير في محتوى الرواية أن أهل مكة ذكروا له أنه يحرم الخمر، ومعلوم أن تحريمها بالمدينة بعد وقعة بني النضير ووجه

---

(١) انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، مصدر سابق، ج١، ص ٤٤٥: وابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، مصدر سابق، ج٢، ص٤١٥: والسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، طبقات الحفاظ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣، ص٥٣٤: والزركلي، الأعلام، مصدر سابق، (١/٣٢٠-٣٢١)

(٢) اللاحم، سليمان بن إبراهيم، منهج ابن كثير في التفسير، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م، ص٣٢٩

(٣) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م، ج١، ص٦.

(٤) ينظر في هذا الباب: الدميني، مسفر عزم الله، مقاييس نقد متون السنة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ه- ١٩٨٤م، الرياض، ص١١٧-١٦٣-١٨٣-١٩٥-٢٠٧-٢٢١.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج١، ص٧

(٦) اللاحم، منهج ابن كثير في التفسير، مصدر سابق ص ٢٤٤.

(٧) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، اختصار علوم الحديث، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ص٤٣.

بديلاً لإيرادها فقال معقبا على ابن هشام: "وكان الأنسب والأليق بابن هشام أن يؤخر ذكر هذه القصة إلى ما بعد الهجرة ولا يوردها هنا"[١].

كما يتبع ابن كثير معياراً يقوم فيه بمحاكمة عقلية لبعض النصوص التي يرد في متونها ألفاظ وعبارات لا تدخل في دائرة التصور وتأتي مراجعته تلك في ضوء ما اكتسبه من علوم وفي ضوء مسلمات عقلية[٢] يؤكدها الحس والمشاهدة، والتساؤل الذي يفضي إلى الرد والاستبعاد وقوله المتكرر "وهذا لا يصح أبدا"[٣]، كذلك يميل الى اختيار الثابت من التاريخ والمشهور عند أرباب السير والمغازي والمحدثين والمؤرخين[٤] ويقوم برد روايات وأقوال تنطق بالضد مما يفهم من ذلك ويتصدى لمناقشة الرواية ويصفها بالغريبة متناً وسنداً [٥].

المطلب الثالث: مصادر ابن كثير في تدوين أخبار المشرق

اعتمد ابن كثير على مجموعة كبيرة من المصادر التي جعلت من تأريخه للمشرق مادة دسمة، ويمكن أن تعد مصادره نموذجاً لطرائقه وطرائق غيره وهي: النقل من الكتب التي صنفها السابقون في العلوم المختلفة، والرواية عمن أدرك من شيوخ العلم وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينه ورآه[٦].

ويمكن تقسيمها إلى:

١. **المصادر الحولية الكبرى :**اعتمد بشكل أساسي على "تاريخ الرسل والملوك" للطبري[٧] و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير الذي أخذ عنه تاريخ أكثر من ثلاثة قرون ونصف[٨] ، وكان ابن الأثير قد لخص في تاريخ الطبري، مع حذف الأسانيد وترك الإسهاب وسرد الحوادث في سياق واحد، ثم زاد عليه إلى عصره من جميع المصادر العربية التي وصلت إليها يده، ومن الملاحظ أن ابن كثير كان يهذب مادة ابن الأثير ويضفي عليها صبغته الخاصة، ومن المؤرخين الذين رجع إليهم ابن كثير أيضاً "سبط ابن الجوزي" في كتاب "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، وأبو شامة المقدسي في كتاب "الروضتين"، وابن الساعي في كتاب "الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير"[٩].

٢. **كتب التراجم والطبقات :**مثل "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي، و"تاريخ دمشق" لابن عساكر[١٠] ، وهذه المصادر مكنته من رسم "الصورة العلمية" لعلماء المشرق.

٣. **المشاهدة والمعاصرة:** اعتمد ابن كثير على مشاهداته الشخصية في دمشق وعلى ما نقله عن شيوخه ومنهم كمال الدين محمد بن علي الزملكاني، وقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب السبكي (٧٢٧ – ٧٧١ه)، والقاضي أمين الدين ابن القلانسي (555 - 463هـ)، والصاحب سعد الدين ماجد ناظر الدواوين (ت ٧٧٥ هـ)، والشيخ محيي الدين الرحبي، والشيخ عبد الرحمن أحد رؤساء بغداد وأصحاب التجارات فيها، والشيخ شهاب الدين العطار[١١] ، مما جعل تصويره لهذه الفترة يتسم بالواقعية السياسية.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٨.

(٢) السنيدي، عبد الرحمن بن علي، منهجية التأليف في السيرة عند ابن كثير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص٥٠

(٣) المصدر السابق، ج٧، ٣٧٠.

(٤) السنيدي، منهجية التأليف، مصدر سابق، ص٤٦.

(٥) المصدر السابق، ج٥، ص١٥٤

(٦) مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ج٣، ص٢٩.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٨، ص٢١٤

(٨) المصدر نفسه، ج٨، ص٣٥٩

(٩) الندوي، مسعود الرحمن خان، الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابة التاريخ، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م، ص٢٨١، ٢٨٢- ٢٨٧.

(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٨: ج١٠، ص٧٧، وكذلك ينظر: الندوي، المصدر سابق، ص٢٨٩.

(١١) الندوي، المصدر نفسه، ص٣١١، ٣١٤.

٤. أحياناً كان يذكر معلومات قرأها من كتب آخرين ومن غير زمانه دون أن يحدد مصدرها أو يذكر من أين جاء بها، وأحياناً يقول: قال غير واحد[١] ، أو قيل، أو ولا نعرف من الذين قالوا، أو يقول وأما ما يذكره بعض الناس، ولا يمكن أن تعرفهم او تعرف المصدر الذي نقل منه[٢] .

المبحث الثاني

المشرق الإسلامي في منظور ابن كثير

(الجغرافيا، الحدود، والتقسيم الإداري)

إن مفهوم "المشرق" في الفكر التاريخي الوسيط لم يكن مجرد تحديد جهوي، بل كان يحمل دلالات سياسية ومذهبية. ويُعد مصطلح "المشرق الإسلامي "من المصطلحات الجغرافية والتاريخية التي تطورت دلالاتها عبر العصور، فكان يُقصد به قديمًا الأقاليم الواقعة شرق الخلافة للتمييز الإداري والجغرافي.

وقد ورد في الحديث ما يفيد تخصيص الأرض التي يشار اليها بلفظة المشرق في قوله صلى الله عليه وسلم: («الدَّجَّالُ» يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا: خُرَاسَانُ، يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ)[٣] وفي حديث آخر هناك إشارة الى موضع ثان لخروج الدجال وهو من المشرق أيضاً في قوله صلى الله عليه وسلم: (يخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ، مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْيَهُودِ عَلَيْهِمُ السِّيجَانُ)[٤] .

وقد قسم ابن رسته أقطار الأرض الى أربعة جعل ربع المشرق الأول فيها وحدده من بغداد الى الجبل وأذربيجان وقزوين وزنجان وقم واصبهان والري وطبرستان وجرجان وسجستان وخراسان وما اتصل بخراسان من التبت وتركستـــان[٥] .

وذكر ابن خرداذبة في خبر المشرق أنه ربع المملكة وقسمه الى ارباع مبتدئاً بذكر ربع خراسان ثم ربع مرو الشاهجان واعمالها وربع الى بلخ وطخارستان وربع هراة وبوشنج وباذغيش وسجستان وربع ما وراء النهر[٦] .

ويُعد المقدسي من أدق من فصّل في هذا التقسيم، حيث قسّم المعمورة الإسلامية إلى ١٤ إقليماً (٨ عربية و٦ أعجمية)[٧] ، وأشار الى ان من سبقوه قد اعتبروه ثلاثة أقاليم (خراسان وسجستان وما وراء النهر) أما أما هو فقد جعله واحدا ذا جانبين يفصل بينهما جيحون ونسب كلّ جانب الى الّذي اختطّه وبناه. [٨] كما قال قال أيضاً: "وكلّما قلنا المشرق فهي دولة آل سامان فان قلنا الشرق أردنا أيضا فارس وكرمان والسند"[٩] ، [٩]، ويذكر ياقوت الحموي تحت مادة (المشرق)، أنه اسم لكل ما كان من جهة مطلع الشمس، [١٠] وكان

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٣.

(٢) أبو قمر، احسان عبد القادر، والصرايرة، سليمان، ابن كثير ومنهجه في كتابه البداية والنهاية، مجلة مؤتة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثامن والثلاثون، جامعة مؤتة، كلية العلوم الاجتماعية، العدد الثالث، ٢٠٢٣، ص١١١

(٣) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦ م، ج٤، ص٩٠، رقم٢٢٣٧.

(٤) الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (٢١٠ - ٣٠٧ هـ)، مسند أبي يعلى الموصلي، ومعه: رحمات الملأ الأعلى بتخريج مسند أبي يعلى، تخريج وتعليق: سعيد بن محمد السناري، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، ج٥، ص٣٧٢، رقم٣٦٣٩.

(٥) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، كتاب الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، ١٨٩١م، ص ٢٦٩.

(٦) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت نحو ٢٨٠هـ)، المسالك والممالك، الناشر: دار صادر أفست ليدن، بيروت، ١٨٨٩ م، ص١٨.

(٧) المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الناشر: مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الطبعة الثالثة، ١٤١١/١٩٩١، ص٤٧

(٨) المصدر السابق ص ٢٦٠

(٩) المصدر نفسه ص٧. وينظر أيضاً: الثامري، احسان ذنون، الحياة العلمية زمن السامانيين، دار الطليعة للطباعة والنشر، والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص١٠.

(١٠) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م، ج٥، ص١٣٣.

يشير به الى البلاد التي تقع الى الشرق من بغداد (باعتبارها دار الخلافة ومركز العالم الإسلامي) في حديثه عن كل رحلة الى تلك الجهات فيصفها بأنها رحلة الى المشرق[١].

يرتكز ابن كثير في تناوله للأقاليم على ثنائية الفتوحات، وإدارة البلدان المفتوحة، حيث يرسم خارطة المشرق الإسلامي انطلاقاً من حركة الفتوحات الكبرى، معتبراً الجغرافيا هي الشاهد على العمل السياسي والعسكري، ويتسع الحيز الجغرافي للمشرق عنده عابرا حدود مركز الخلافة ليبدأ من حدود العراق الغربية وصولاً إلى تخوم بلاد الصين وما وراء النهر.

المطلب الأول: تحديد الحيز الجغرافي للمشرق الإسلامي

إن الرؤية الجغرافية عند ابن كثير ليست مجرد وصف للطرق والمسالك، بل هي جغرافيا سياسية تربط استقرار الأقاليم بمدى قوتها الإدارية وتمسكها بالمنهج الشرعي، فالمشرق عنده هو أرض الفتوحات، ومنبت العلماء، ومسرح الفتن الكبرى، مما جعل توصيفه للحدود يمتزج دائماً بالتقييم التاريخي والأخلاقي لسكان تلك الأقاليم.

يُعرّف ابن كثير "المشرق" بمفهومه الواسع الذي يشمل الأراضي الواقعة شرق دار الخلافة (سواء في دمشق أو بغداد)، وكان يشير اليه بعبارة "بلاد المشرق" [٢]، فضلاً عن ذكره للحجاز واليمن والشام، إلا أن "الشام" تمثل في كتاباته قلب العالم الإسلامي النابض، خاصة في فترة الحروب الصليبية والمغولية، وكان ابن كثير يرسم حدود الأقاليم بناءً على التضاريس المائية والجبلية التي تتحكم في حركة الجيوش والحكام.

ويمكن ان نلمس من تلك الإشارات التي وردت في متن الكتاب تقسيما عابراً للمسافات الجغرافية والحواجز الطبيعية أو يتناغم معها من خلال التوصيفات التالية التي تشملها بقاع المشرق الإسلامي وكما يلي:

١. **مشرق أدنى:** وهو الأقرب الى دار الخلافة ومقرها ويتمثل في إقليم العراق أو ما يسميه بـ(أرض السواد)[٣] ، الذي يصفه بالبركة والخير ويذكر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله (اللهم أقبل بقلوبهم)[٤] ، ويحدده بين دجلة والفرات، إذ نراه في وصفه مكان حدوث حرب صفين يعد الفرات حداً فاصلا بين العراق والشام [٥]، ويذكر على لسان من يروي لهم أنهم انتهوا الى دجلة وان ما خلفها هم الأعاجم فيعدها فاصلاً بين الأجناس [٦] ويجعلها شاهدا على هزيمتهم وغرق جيوشهم[٧] ، ويتخذها حداً لوصف ما يقع غربها بأرض العرب[٨] ، ويميز بها بين ارضهم وارض الاعاجم وهم يقفون على الجانب الآخر منها[٩] .

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص ٢١٣ (وكانت رحلتي إلى المشرق في محرم سنة ٣٥١، ودخلت بغداد)، ص٢٣٧، ٢٤٧، ٤٨٣، ٥١٨،

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٢٠٠/٢، ١٩٥/٩، ٢٠٢/١٠، ٣٩/١١، ١٣١، ٢٠٤، ٣٧٩، ١٥٠/١٢، ٢٥٣/١٣، ٢٦٦، ١٧٣/١٤).

(٣) المصدر السابق، (٢٧٠/١٠، ٢٨٢) (١٧٩/١١)

(٤) المصدر نفسه، (١٨٨/٦)، والحديث في: الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود (ت ٢٠٤ هـ)، المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، (١/ ٤٩٦): «نَظَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قِبَلَ الْيَمَنِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَقْبِلْ بِقُلُوبِهِمْ، ثُمَّ نَظَرَ قِبَلَ الشَّامِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَقْبِلْ بِقُلُوبِهِمْ ثُمَّ نَظَرَ قِبَلَ الْعِرَاقِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَقْبِلْ بِقُلُوبِهِمْ، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا».

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٧/ ٢٨٦): «بمكان يقال له صفين بالقرب من الفرات شرقي بلاد الشام»

(٦) المصدر نفسه، (٦/ ١٧٢): «انتهينا إلى دجلة وهي مادة والأعاجم خلفها»

(٧) المصدر نفسه، (٧/ ٣٢): «فواقع هرقران المدار فقتله وانهزم جيشه وغرق أكثرهم في دجلة فلما وصل الناس إلى العراق وجدوا الفرس مضطربين في ملكهم»

(٨) المصدر نفسه، (٧/ ٧٣): «ولم يبق من غربي دجلة إلى أرض العرب أحد من الفلاحين إلا تحت الجزية والخراج»

(٩) المصدر نفسه، (٧/ ٧٥): «فوقفوا على حافة دجلة فقال عاصم: من ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولا في هذا البحر فنحمي الفراض من الجانب الآخر؟ فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين - والأعاجم وقوف صفوفا من الجانب الآخر»

٢. **مشرق أوسط** :ويشمل بلاد فارس (أصبهان، شيراز، وبلاد الري والجبل[١])، ويصفها بكونها أقاليم حضارية قديمة دخلت في حوزة الإسلام وصارت معقلاً للعلماء والحفاظ والثقات والشراح[٢] . كذلك كذلك كانت موطنا لظهور اقوام معادية للدين كالديلم[٣] .

٣. **مشرق أقصى** :ويضم خراسان الكبرى[٤] وبلاد ما وراء النهر (جيحون)[٥]، وهو الحيز الذي يراه ابن كثير "ثغراً" دائماً وميداناً للصراع مع الأتراك والمغول، إذ يقرن ظهور التتار بصحبة ملكهم جنكيزخان بعبورهم نهر جيحون[٦] ، ويبرز نهر "جيحون" كفاصل جغرافي وعقدي مثلما هو فاصل بين الأجناس كما تقدم ذكره باعتباره مشرقاً أقصى، فما قبله خراسان (مركز الحضارة الإسلامية المشرقية)، وما بعده بلاد الترك والتبت، ويصف مدناً مثل بخارى وسمرقند كقواعد جغرافية لا تنفصل عن جسم الدولة[٧] .

٤. **إقليم الشام** :رغم كونه مركزاً لابن كثير، الا انه يقسمه إدارياً إلى "الأجناد الخمسة" (دمشق، حمص، قنسرين، الأردن، وفلسطين)[٨] ، ويربط تلك الاجناد بالمشرق عبر ثغور الجزيرة الفراتية وجندها وجندها[٩] .

المطلب الثاني: التقسيم الإداري للأقاليم في كتاب البداية والنهاية

يعتمد ابن كثير في رصده الإداري على نظام الولايات الكبرى وتبعيتها المركزية

١. **نظام الولايات** :يصور المشرق كمجموعة، وغالباً ما كانت تُجمع ولاية من ولايات المشرق كاملة لأمير واحد، او توزع بين الأمراء ومن أمثلة ما ذكره ابن كثير في كتابه في السنوات الأولى لقيام الدولة العباسية (١٣٣هـ) هو ما فعله السفاح عندما ولى عمه سليمان البصرة وأعمالها، وكور دجلة والبحرين وعمان وأرسل عمه إسماعيل بن علي إلى كور الأهواز[١٠]، كما ولى أخاه يحيى بن محمد الموصل، وعمه داود مكة والمدينة واليمن واليمامة، وعيسى بن موسى على الكوفة[١١]، وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة، وعلى مصر صالح بن علي، وعلى خراسان أبو داود إبراهيم بن خالد، وعلى الحجاز زياد بن عبد الله[١٢]، وما فعله ركن الدولة بن بُويه في سنة (٣٦٥هـ) حين قسم ممالكه بين أولاده عندما كبرت سنه، فجعل لولده عضد الدولة بلاد فارس وكرمان وأرجان، ولولده مؤيد الدولة الري وأصبهان، ولفخر الدولة همدان والدينور[١٣] ، ويظهر هنا تقسيم الأقاليم إلى كتل كبرى: (الحجاز، العراق، الشام، مصر، المشرق/خراسان، والثغور).

---

(١) المصدر نفسه، (١١/ ٢٦٣)
(٢) المصدر نفسه، (٣٨٦/١١) (٣٨٨/١١) (١٨١/١٤)
(٣) المصدر نفسه، (١١/ ١٧٦) في احداث سنة ٣١٥هـ.
(٤) «بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أمّهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو، وهي كانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون، ومن الناس من يدخل أعمال خوارزم فيها ويعدّ ما وراء النهر منها وليس الأمر كذلك»، ينظر: الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج٢، ص٣٥٠.
(٥) «يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام سموه ما وراء النهر، وما كان في غربيّة فهو خراسان وولاية خوارزم،» الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق (٥/ ٤٥).
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٣/ ٩٨)
(٧) المصدر نفسه، (١٣/ ١٠٣): «بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما،»
(٨) المصدر نفسه، (٩/ ٦٢): جند حمص، (٧/ ٩١): جند دمشق، جند الأردن، (٩/ ٦٧): جند فلسطين.
(٩) المصدر نفسه، (١٠/ ٢٤): «وقدم مروان إليها فبايعوه وساروا معه قاصدين دمشق، ومعهم جند الجزيرة وجند قنسرين»
(١٠) المصدر نفسه، (١٠/ ٦١)
(١١) «البداية والنهاية» (١٠/ ٥٩)
(١٢) المصدر نفسه، (١٠/ ٥٤)
(١٣) المصدر نفسه، (١١/ ٣٢٠).

٢. **الأمصار** :يركز ابن كثير على الأمصار كأقطاب إدارية، وهي المعنية دائما بالمخاطبات والمكاتبات الصادرة من مركز الخلافة[١] ، وكان تحديد الامصار من أول المهام التي يضطلع بها الخلفاء بعد فتح البلدان وتقسيم الغنائم[٢] ، فنراه يصف الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بأنه أول من مصر الأمصار، وجند الأجناد[٣] . وكان الموكلون بأمور الامصار يسمون عمالاً او نواباً للخليفة[٤] ، وكانت البيعة تؤخذ من الامصار ويتم تجديدها عند تولي الخلفاء مناصبهم وربما يستبدل العمال او يستبقيهم[٥] ، ويقام الدعاء على على منابر الأمصار لولاة العهد والإمرة من بعد الخليفة[٦] .

٣. **الثغور:** يبرز في منهجه التقسيم الوظيفي للمدن، حيث يصنف بعض المدن كـ"ثغور"[٧] وهي المناطق المتاخمة لدار الحرب مع العدو والتي كان المسلمون يسدونها بنحورهم حسب تعبير ابن كثير[٨]، (مثل طرسوس في الشمال أو بلخ في الشرق أو فراوة)[٩] وظيفتها حماية حدود بلاد الإسلام، ومدن أخرى أخرى كمراكز لإدارة الجباية مثل بغداد وخراسان وهي من المدن التي كان فيها ديوان للخراج [١٠] ومدنٌ أخرى كانت حواضر للعلم والعلماء كبغداد ونيسابور وبخارى وسمرقند وبلخ مما سيأتي ذكره في فصل الصورة الاجتماعية والحضارية للمشرق الإسلامي عند ابن كثير.

المبحث الثالث

الصورة السياسية والعسكرية للمشرق الإسلامي

يذكر ابن كثير في تفاصيل خروج الدعوة العباسية الدور المهم لبلاد المشرق الإسلامي وكيف كانت مرو منطلقاً لتغيير وجه الخلافة، ويركز على دعمها للدولة العباسية في بدايتها، ثم تحول هذا المشرق إلى ثغر لمواجهة الترك والمغول وحماية العالم الاسلامي لاحقاً، ففي أحداث سنة (١١٣ه) يذكر كيف بدأت الدعوة بمجيء جماعة من دعاة بني العباس إلى خراسان وانتشروا فيها وكيف احتضنتهم ومكنت لهم سبل نشر دعوتهم[١١] ، إذ أرسل إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (سنة ١٢٦ه) رسوله إلى أرض خراسان، فاجتمع بجماعة من أهلها بمرو، فقرأ عليهم كتاب إبراهيم الإمام، فتلقوا ذلك بالقبول، وأرسلوا معه ما عندهم من النفقات[١٢] . ثم أردف عليهم برسول آخر (سنة ١٢٨ه) وهو أبو مسلم الخراساني مولياً إياه على ما غلبه من ارضهم، ثم بعث اليه (سنة ١٢٩ه) براية النصر وأمره بإظهار الدعوة[١٣] ، فلما مات نصر بن سيار[١٤] تمكن أبو مسلم وأصحابه من البلاد وارتحلوا من مرو فنزلوا

---

(١) المصدر نفسه، (٧/ ٥٦): «وكتب إلى سائر الأمصار يأمرهم»، (٧/ ٩٣): «كتب عمر إلى الأمصار:»
(٢) المصدر نفسه، (٧/ ٦٧): «وجند الأجناد ومصر الأمصار»
(٣) المصدر نفسه، (٧/ ١٥١):
(٤) المصدر نفسه، (٧/ ١٨٨): «نوابه»، (٧/ ١٦٧): «عماله»، (٧/ ٢٥٤): «نواب الامصار»، (٧/ ٢٥٦): «وولى على الأمصار نوابا»، (٧/ ٣٥٦): «عمال علي على الأمصار»
(٥) المصدر نفسه، (٨/ ٦٣)، (١٠/ ١١٢): «وعمال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنة الماضية»
(٦) المصدر نفسه، (١٠/ ٢٤٣)
(٧) «ثَغْرُ العدو: ما يلي دار الحرب.»، ينظر: الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت ١٧٠هـ)، كتاب العين، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، (٤/ ٤٠٠)،
(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٢/ ٤١٩)
(٩) المصدر نفسه، «ثغر طرسوس»، (١١/ ١٠٩)، «ثغر فراوة»، (١٢/ ٢٦٢)، «ثغور بلخ»، (٧/ ١٤٨).
(١٠) المصدر نفسه، (١٠/ ١٠٨): بغداد: «تجبى إليها خزائن الأرض»، «وقدمتها الميرة من كل جانب»، (١١/ ١٥)، «وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك» (١٠/ ٦٠)
(١١) المصدر نفسه، (٩/ ٣٣٣)
(١٢) المصدر نفسه، (١٠/ ١٨):
(١٣) المصدر نفسه، (١٠/٣٠)، (١٠/٣٣)
(١٤) «نصر بن سيار: صاحب خراسان، الأمير، أبو الليث المروزي، نائب مروان بن محمد، خرج عليه أبو مسلم صاحب الدعوة، وحاربه، فعجز عنه نصر، واستصرخ بمروان أكثر من مرة، وكان مروان منشغلا عنه، وتقهقر نصر، وجاءه الموت على حاجة، فتوفي بساوة، في سنة إحدى وثلاثين ومائة. وقد ولي إمرة خراسان عشر سنين. وكان من رجال الدهر سؤددًا وكفاءة.» ينظر: الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ)، سير أعلام النبلاء، خرج أحاديثه واعتنى به: محمد أيمن الشبراوي، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، (٦/ ١٧٤)

نيسابور، وقويت شوكتهم[١] . ويخلص الى أن ظهور دولة بني العباس كان من خراسان في سنة ثنتين وثلاثين ومائة[٢] .

وبعد تسلم العباسيين مقاليد الحكم يرسم ابن كثير خارطة المشرق الإسلامي سياسياً وعسكرياً بناءً على مركزية الخلافة في بغداد (كرمز شرعي) وقوة الأطراف في الشام وخراسان (باعتبارها قوة عسكرية)، ويرصد تحولاً جوهرياً في بنية الدولة الإسلامية؛ إذ انتقل ثقل القرار السياسي من المركزية المطلقة في بغداد إلى المركزية الواقعية التي تقاسمتها إمارات المشرق والشام، هذا التحول خلق ازدواجية بين الشرعية التي يمثلها الخليفة العباسي، والسلطة الفعالة التي يمارسها السلاطين والأمراء في الأقاليم.

وسنقوم هنا بتحليل هذه الصورة عبر المطالب التالية:

المطلب الأول: مركزية العراق والشام (بين شرعية الخلافة وقوة السلطة)

يركز ابن كثير على العلاقة بين الخليفة العباسي في بغداد والقوى السياسية الصاعدة في الشام (الزنكيين والأيوبيين)، ويرسم صورة مشرقة لعماد الدين زنكي [٣]وابنه نور الدين محمود في علاقتهما ببغداد فقد كان الزنكيون يمثلون رأس الحربة في مواجهة المد الصليبي والضعف الداخلي[٤]، هذا من الناحية العسكرية أما الصورة السياسية لذلك فتتوضح من خلال مفهوم الولاية والاعتراف بالخلافة كممثل للشرعية، ويذكر أن نور الدين كان شديد الاحترام لمنصب الخلافة، إذ خطب للمستنجد بالله بولاية العهد من بعد أبيه المقتفي[٥] وكان يرى في التقليد وكتابة العهد تفويضاً رسمياً من الخليفة وهو ضرورة دينية وسياسية[٦].

المطلب الثاني: بلاد فارس وخراسان (مركز القوة والنزاع السياسي)

اعتنى ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية" بتوثيق لحظات الضعف السياسي التي دبت في جسد الدولة العباسية، خاصة مع صعود الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي (مثل الصفارية، السامانية، والغزنوية) وما رافق ذلك من صراعات دموية على السلطة.

١. الصراع مع الخلافة العباسية:

وثّق ابن كثير في كتاب البداية والنهاية (خاصة في أحداث القرن الثالث الهجري) كيف تحول الخلفاء إلى أسرى بيد القادة العسكريين، وما رافق ذلك من عمليات عزل وقتل للخلفاء (مثل المتوكل والمستعين)[٧] ، وأورد نماذج من خروجهم عن طاعة الخليفة كما فعل يعقوب الصفار مع المعتمد ومحاولته غزو بغداد، وهو ما مثل ذروة التحدي العسكري من المشرق، وذلك في أحداث سنة (٢٦٣ه) عندما خرج اليه الخليفة والتقاه في واسط وتغلب عليه[٨] ، وهو حدث خطير يشير إلى تحول قادة المشرق من حماة للثغور إلى مهددين لمركز الخلافة نفسه. ونموذج آخر من التمرد على سلطة الخليفة مع حلول سنة (٤٣٤ه) أمر الملك جلال الدولة أبا طاهر بجباية أموال الجوالي ومنع عمال الخليفة من استلامها، فاستاء القائم بالله وعزم على مغادرة بغداد[٩] .

غير ان بغداد تظهر في كتاب البداية والنهاية كرمز للمشروعية الدينية والقانونية، ويصور ابن كثير الخلفاء العباسيين في عصورهم المتأخرة كرموز للوحدة رغم فقدانهم السيطرة العسكرية، إذ كانت إمارات

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٤١/١٠).
(٢) المصدر نفسه، (٦/ ٢٧٤)
(٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٤٨): «وفيها – سنة ٥٢٤هـ- ملك عماد الدين زنكي بلادا كثيرة من الجزيرة وهما مع الفرنج، وجرت معهم حروب طويلة، وقتل خلقا من جيش الروم حين قدموا الشام، ومدحه الشعراء على ذلك.»
(٤) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٦١): «واستنهض الخليفة الأمراء، وأرسل إلى عماد الدين زنكي فجاء والتف على الخليفة خلائق،»
(٥) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٧٧):
(٦) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٨٨): «فكتب الخليفة عهدا إلى نور الدين محمود بن زنكي بالولاية على بلاد الشام والديار المصرية، وأرسله إليها»
(٧) المصدر نفسه، (١٠/ ٣٨٥)، (٢٤٧ه): (١٥/١١)، (٢٥٢ه)
(٨) المصدر نفسه، (١١/ ٤٢)
(٩) المصدر نفسه، (١٢/ ٦٣):

المشرق (كالسلجوقية والبويهية) تسعى دوماً لنيل التقليد من الخليفة لتكتسب فاعليتها السياسية صبغة شرعية، ففي أحداث سنة (٣٢٢ه) يذكر ابن كثير ان ابن بويه أرسل إلى الخليفة بالطاعة والمعونة، وإن أمكن أن يحضر بين يدي الخليفة ويقبل العتبة الشريفة[١]، وفي أحداث (سنة ٤٤٩ هـ) يتحدث ابن كثير عن عن استقرار القواعد للسلطان طغرل بك ولقائه بالخليفة القائم بأمر الله ووقوفه بين يديه وقوله (أنا خادم أمير المؤمنين وعبده)، فألبسه الخليفة الخلعة وكتب له تقليداً بالسلطنة مفوضاً إليه أمور الرعية[٢] ، ومن هذا يتوضح لدينا أن السلطة العسكرية (طغرل بك) لم تكتمل إلا بأمضاء الشرعية متمثلة بـ(الخليفة القائم). وفي احداث سنة (٥٥١ه) يصف استقبال بغداد للسلطان السلجوقي سليمان شاه بمراسم رسمية، حيث مَثُل بين يدي الخليفة العباسي مؤكداً ولاءه المطلق وطاعته وقبل الأرض بين يديه، وقد انتهى اللقاء بترتيب سياسي يقضي بتقاسم نفوذ القوة والشرعية؛ فثبتت تبعية العراق لإدارة الخليفة، في حين مُنح السلطان الحق في حكم ما يستولي عليه من أقاليم خراسان تحت الغطاء الشرعي للخلافة[٣] .

وهكذا كان من اللازم استصدار مرسوم شرعي من الخليفة العباسي، يُوقَّع ويُعتمد لتعيين العمال والولاة أو عزلهم، وذلك لضمان تهدئة الرأي العام، فقد ارتأى السلاطين والأمراء أن إظهار مظاهر الولاء والطاعة للخليفة يُعدّ وسيلة أكثر ملاءمة لإرضاء عامة الناس[٤] .

٢. الصراعات الداخلية:

ومن أمثلة ما ذكره ابن كثير عن الصراعات الداخلية في المشرق الاسلامي تلك الاحداث التي نشأت داخل البيوت الحاكمة من الأمراء وبين الأخ وأخيه وسيطرة المقربين وقادة الجيش وتحكمهم في مقاليد الأمور، ومن امثلتها ما حصل في البيت الساماني، إذ يرصد ابن كثير كيف تحولت إمارة السامانيين من الاستقرار إلى الفوضى بسبب صراع الأمراء مع قادة جيوشهم (الأتراك)، ففي احداث سنة (٣٨٧ه) اضطربت الأمور على نوح بن منصور الساماني صاحب خراسان وغزنة و بلاد ما وراء النهر، فانقلبت عليه حاشيته ووضعوا مكانه عبد الملك أخاه، فجاءهم محمود بن سبكتكين فاخذ الملك منهم[٥]، واستحوذ الأتراك على الممالك، واختلفوا فيما بينهم، وجرت حروب طويلة ، وذهبت هيبة الملك. ومثل ذلك ما حدث في عام (٤٣٢ه) بين الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين وأخيه محمد حين استغل اتباعه ذهابه الى الهند لسبي تركه هناك، فخلعوه واجتمعوا على أخيه محمد وحدث بينهم قتال وتم أسره ونفيه[٦] .

٣. صراع الأتراك والديلم:

لا يغفل ابن كثير أثر ودور الموالي والأتراك والديلم وكما لاحظنا في مطلبنا هذا أنه ركز على أن الصراع لم يكن دائماً بين العرب، بل كان صراعاً أعجمياً-أعجمياً على أرض المشرق، وقد بدأ الصراع بين الأتراك والديلم عندما ظهروا في بلاد الري سنة (٣١٥ه)، وكان ملكهم مرداويج يدّعي أنه سليمان بن داود لكنه كان ظالما مع اهل الري وقزوين وأصبهان، ويتجرأ على محارم الله فقتلته الأتراك[٧]، وفي سنة سنة (٣٦٣ه) يذكر ابن كثير ان الفتنة اندلعت في البصرة بين الديلم والأتراك، فتمكّن الديلم من التغلب على الأتراك لكون السلطة بأيديهم، فأوقعوا قتلاً واسعًا في صفوفهم، وأسروا قادتهم، واستولوا على كثير من أموالهم[٨] ، أما في بغداد فقد قويت شوكة الأتراك، ونهبو دور الديلم.

٤. الصراع السلجوقي الغزنوي

---

(١) المصدر نفسه، (٢٠١/١١)
(٢) المصدر نفسه، (٩٠/١٢)
(٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٩١):
(٤) الطائي، سعاد هادي حسن، والعنبكي، شيماء فاضل عبد الحميد، دراسات في تاريخ المشرق الإسلامي (ق ٣-٧هـ/٩-١٣م)، دار ومكتبة عدنان، بغداد، الطبعة الأولى ٢٠٢٠ م، ص١٥.
(٥)ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٣٧٠/١١)
(٦) المصدر نفسه، (١٢/ ٦١)
(٧) المصدر نفسه، (١٧٦/١١)
(٨) المصدر نفسه، (١١/ ٣١٢)

ويذكر ابن كثير في احداث عام (٤٣١- 432هـ) تحولاً مهما في الخريطة السياسية وتوازن القوة للمشرق الإسلامي، حيث تصاعد نفوذ السلاجقة بشكل واضح تحت قيادة طغرلبك، الذي نجح في بسط هيمنته وانقاد له العسكر والجمهور على حد سواء، وبعد موت السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين تمكن طغرلبك من إتمام السيطرة المطلقة على إقليم خراسان وضم كافة مدنه لحكمه، وخطب له فيها، وأصبح عظيم الشأن، وذاع صيته في الآفاق[١] .

٥. التنازع على السيادة من خلال ظاهرة "تعدد الخطبة"

مما لا شك فيه أن السكّة والخطبة هما رمزا السيادة، واضطرابهما عند ابن كثير هو دليل مهم على التمزق السياسي، ويتضح من سير الاحداث في البداية والنهاية أن ظاهرة تعدد الخطبة في العصر العباسي كانت انعكاسًا مباشرًا لتفكك السلطة المركزية، حيث صار كل أمير أو سلطان أو والٍ يرفع الخطبة باسمه أو باسم الخليفة الذي يواليه، مما أدى إلى تعدد المنابر والخطب في المشرق الإسلامي، ففي احداث سنة (٣٦٣ه) يذكر فيها الخطبة للمعز الفاطمي بالحرمين [٢]، وكذلك قطع الخطبة لبني العباس[٣] ، واعيدت فيما بعد في سنة (٤٦٧ه)[٤]، كما ذكر في مواضع شتى كيف كان الخطباء على المنابر يغيرون الدعاء من من اسم أمير إلى آخر بناءً على الغلبة، مثلما حدث في سنة (٤٠١ه) إذ خطب بالموصل للحاكم العبيدي بعد ان أمر بذلك قرواش بن مقلد أبي منيع، وعندما علم الخليفة القادر رتب الأمور لمحاربته فرجع عن ذلك وأمر بعدم الخطبة للحاكم، وأعيدت الخطبة للقادر[٥] . وفي احداث سنة (٤١٦ه) طلب من الخليفة مبايعة أبي كاليجار ولي عهد سلطان الدولة البويهي، ثم أقيمت الخطبة له [٦]، كما ألحّ الاسفهلارية الغلمان الغلمان على الخليفة بتولية جلال الدولة وأقيمت له الخطبة في بغداد [٧]، ويشير ابن كثير الى تذبذب الخطبة في سنة (٤٢٨ه) حين وقعت الفرقة بين الجند وبين جلال الدولة وقطعوا خطبتة وخطبة الملك أبي كاليجار ثم أعادوها[٨] ، ومن الأمثلة التي ذكرها ابن كثير على تذبذب الخطبة أيضا أن السلطان بركيارق بن ملكشاه ركن الدولة السلجوقي خُطب له ببغداد ست مرات، ثم تنقطع الخطبة له ثم تعاد [٩]، وفي سنة (٥٤٥ه) تقررت الخطبة لنور الدين محمود (بعد الخليفة والسلطان) بعد ان فتح حصن فامية، وكذلك السكة [١٠]، وفي احداث سنة (٥٦٧ه) يأمر صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر بعد ان قطعت في خلافة المطيع سنة (٣٥٩ه) [١١].

تظهر هذه الأقاليم في كتاب ابن كثير كخزين بشري وعسكري هائل، يصف جنوده بأنهم يضيق بهم الفضاء[١٢] لكنه يعاني من التمزق السياسي قبل وصول المغول[١٣]، وتتضح الصورة العسكرية من خلال وصف ابن كثير للجيوش الخراسانية بالبأس والشدة، لكنه ينتقد تشرذمها، كما ربط الفساد السياسي بالقدر

---

(١) المصدر نفسه، (١٢/ ٦٠، ٦٣)
(٢) المصدر نفسه، (١١/ ٣١٤)
(٣) المصدر نفسه، (١١/ ٣٥٥)
(٤) المصدر نفسه، (١٢/ ١٣٨)
(٥) المصدر نفسه، (١١/ ٣٩٥)
(٦) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٣)
(٧) المصدر نفسه، (٢٨/١٢)، والاسفهلارية: وصاحبها زمام كلّ زمام، وإليه أمر الأجناد والتحدّث فيهم، وفي خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجّاب على اختلاف طبقاتهم، ينظر: القلْقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، (٣/ ٥٥٤): «وفي الاصل الاسفهلار وهو تحريف، والاسفهسلار اصطلاح عسكري مركب من كلمتين: اسفه: مقدم وهي فارسية: وسلار: عسكر وهي تركية.» ينظر الحاشية، ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٢/ ٣١٩).
(٨) المصدر نفسه، (١٢/ ٥٠)
(٩) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٠٢):
(١٠) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٨٤):
(١١) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٢٨):
(١٢) المصدر نفسه، (١٢/ ٦١)
(١٣) المصدر نفسه، (١٠٤/١٣)

العدد 12 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية كانون 2 2026
No. 12 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences January 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

إذ يحلل ابن كثير سقوط الدول غالباً من زاوية الظلم أو الابتعاد عن الدين، مكررا ذكر الآية الكريمة (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[١] ، والآية الكريمة (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا)[٢] ، وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [٣].

وخلاصة القول ان ابن كثير أبرز في كتاب البداية والنهاية تلك العلاقة الثلاثية بين الخليفة وهو رمز القوة الشرعية الروحية والقانونية، والسلطان الذي يمثل القوة التنفيذية، والجهاد وهو الهدف المشترك بين الاثنين، وابن كثير، كفقيه ومؤرخ، ينحاز دائماً للسلاطين الذين يعظمون شأن الخلافة ويلتزمون بمنهج الجماعة[٤].

المطلب الثالث: بلاد ما وراء النهر:

تُعرف المنطقة الواقعة بين نهري سيحون وجبال جيحون وما حولهما باسم ما وراء النهر، وكان نهر جيحون في الماضي بمثابة الحدود بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية، وقد أطلق العرب على المناطق الواقعة عبر نهر جيحون اسم ما وراء النهر، والتي تُعرف أيضًا بأرض الهياطلة[٥] ، [٥]، ويتناول ابن كثير في سرده التاريخي هذه الأرض وعلاقتها بالخلافة العباسية، سواء من خلال توزيع جيوشها أو من خلال تأثيرها على الأمن الداخلي للخلافة، ويَعد ابن كثير ثغور هذه البلاد حدوداً استراتيجية وشاهدا لوقائع سياسية وعسكرية بالغة الأثر على السلطة العباسية[٦] ومؤشر قوة وضعف سياسي واقتصادي وثقافي، ويذكر معارك وغزوات عبر هذه الثغور[٧] ويبيّن كيف أن السيطرة عليها كانت ضرورية لاستقرار خراسان وبقية الأقاليم الشرقية، فقام العباسيون بإنشاء قواعد عسكرية[٨] ومراكز تموين تُستخدم ضد الهجمات كما شرعوا في تنظيم حملات مقابلة، الأمر الذي جعلها عنصرا مهما للترجيح في الصراع مع القوى الموجودة على حدود الخلافة الاسلامية.

ويبرز ابن كثير الصورة السياسية لهذه البلاد فيرى ان بلاد ما وراء النهر كانت سياجاً يحمي قلب العالم الإسلامي من هجمات القبائل التركية فيذكر في حديثه عن فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة (٨٧ هـ) وما بعدها إلى أن هذه البلاد كانت دائماً هي الثغر الذي يحمي الدولة الإسلامية من غارات الأتراك عبر التاريخ الأموي والعباسي، وحائلاً دون وصول الأعداء الى قلب المشرق الإسلامي[٩] ، ومن ثم من غارات المغول على تلك الثغور وما رأوه من الممانعة والمقاتلة حتى كانوا يعدلون منها الى غيرها[١٠] وذلك خلال احداث اجتياح المغول للمشرق الإسلامي في عام (٦١٧ه)[١١].

المطلب الرابع: النشاط العسكري ووصف المعارك الفاصلة

يهتم ابن كثير بالتفاصيل العسكرية التي تمثل العصر الذي حدثت فيه، خاصة ما جرى في مواجهة الصليبيين والمغول. وهو لا يكتفي عندما ينقل صورة **تلك الحرب** بذكر العدد والعدة[١٢] ، بل يركز ايضاً

---

(١) الانعام: ٤٥، ينظر: المصدر نفسه، (٣٩٧/١٢، ٤٠٣)، (٢٥٦/٣١، ٣٧٨)
(٢) النمل: ٥٢. ينظر ابن كثير، (٣٢١/١٢)
(٣) الرعد: ١١، ينظر المصدر نفسه، (١٢/ ٥٦):
(٤) المصدر نفسه، (٨٠/٦)، (١٤١/١٢)
(٥)«الهيطل والهياطلة جنس من الترك والسند»، ينظر: الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري
(ت ١٧٠هـ)، كتاب العين، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، (٤/ ٢١)؛ والحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، (٢/ ٣٥١): «فأما ما وراء النهر فهي بلاد الهياطلة»، و(٤٥/٥) «يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام سموه ما وراء النهر».
(٦) المصدر نفسه، (١١/ ١١٠): في احداث سنة (٢٩١هـ) «وفيها قصدت الأتراك بلاد ما وراء النهر في جحافل عظيمة، عظيمة، فبيتهم المسلمون فقتلوا منهم خلقا كثيرون وسبوا منهم ما لا يحصون»
(٧) المصدر نفسه، (١٢/ ١٦٦): «ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر وطائفة كبيرة من تلك الناحية، بعد حروب عظيمة، عظيمة، ووقعات هائلة.»، (١٣/ ٥٧): «وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش بلاد ما وراء النهر بعد حروب طويلة.»
(٨) المصدر نفسه، (١٠/ ١٨٤): «وغزا ما وراء النهر، واتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم له»
(٩) المصدر نفسه، (٨٦/٩)
(١٠) المصدر نفسه، (١٠٦/١٣)
(١١) المصدر نفسه، (١٠٣/١٣)
(١٢) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٩٢):

على الروح والمعنويات التي قاتل بها المسلمون وثبات قياداتهم[١] لاسيما في وصفه لمعركة حطين في الشام في أحداث عام (٥٨٣ه)، وكان ابن كثير يربط الاحداث التي يرويها بالقران وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويعللها بها: «قال تعالى (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا)[٢] فمدينة دمشق لا سبيل للأعداء من الكفرة عليها، لأنها المحلة التي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن، وبها ينزل عيسى بن مريم» [٣]. ومن أبرز الصور التي نقلها ابن كثير عن معركة حطين:

أ- بدأ ابن كثير بوصف المعركة بأنها كانت "أمارة وتقدمة وإشارة لفتح بيت المقدس"؛[٤] أي أنها لم تكن مجرد نصر عسكري، بل كانت المقدمة الضرورية لاستنقاذ بيت المقدس من أيدي الصليبيين.

ب- أشار ابن كثير إلى أن السبب المباشر كان ان صلاح الدين قد جعل أكبر همه فتح بيت المقدس، وبسبب غدر البرنس صاحب الكرك، الذي اعتدى على قافلة تجارية للمسلمين وقتل من فيها واستهزأ بالنبي ﷺ قائلاً: "أين محمدكم؟ دعوه ينصركم" فذكر ابن كثير أن صلاح الدين نذر حينها أن يقتله بيده إذا أظفره الله به[٥].

ت- وصف حشود الصليبيين بأنهم جاءوا بحدّهم وحديدهم، واستصحبوا معهم "صليب الصلبوت"[٦] (وهو الصليب الأعظم عندهم)، ووصفهم بعبارات قوية تظهر عظمة الحشد وكثرة عدده مثل قوله: «فأقبلوا بحدهم وحديدهم، فتلقاهم الملك العادل بمرج عكا فكسرهم وغنمهم[٧] في خلق لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل، يقال كانوا خمسين ألفاً، وقيل ثلاثاً وستين ألفاً»[٨].

ث- وصف مشهد الانتصار النهائي للمسلمين وانكسار الصليبيين بدقة، حيث ذكر أن المسلمين قتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا الباقين[٩] ، وعليه يصدق قول أبو شامة في كتابه (الروضتين) في وصف كثرة القتلى والأسرى بجملته الشهيرة: «من شاهد القتلى قال ما هناك أسير ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل» [١٠].

ج- ركز ابن كثير على ذكاء المسلمين في اختيار موقع المعركة، وذكر كيف أحاط المسلمون بالفرنج وأحرقوا الحشائش الجافة حولهم، فاجتمع عليهم حر الشمس، وحر العطش، وحر النار، وحر السلاح[١١].

وسيأتي وصف ابن كثير للمعارك الفاصلة عند اجتياح الصليبيين والمغول للمشرق في مبحث المشرق في مواجهة الفتن والنكبات.

المطلب الخامس: الرؤية السياسية عن المشرق الإسلامي في كتاب البداية والنهاية

تعتمد رؤية ابن كثير السياسية في كتابه التاريخي "البداية والنهاية" على منظوره الديني، حيث يصنف الحكام بناءً على مدى التزامهم بنصرة الدين والجماعة، وحماية أرض الإسلام (خاصة ضد الصليبيين)، وعلاقتهم بالخلافة العباسية. ويظهر هذا التباين بوضوح في مقارنته بين حكام الشام وحكام الأطراف في فارس من خلال الألقاب التي أطلقها على حكام الشام مثل "الملك العادل" "الكبير الثاغر المرابط، المؤيد

---

(١) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٦٥): «وذلك يوم حطين، وقد ثبت السلطان في هذه الوقعة ثباتا عظيما»
(٢) الحج: ٤٠
(٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٧٩)
(٤) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٩١)
(٥) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٨٧)
(٦) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٩٢)
(٧) المصدر نفسه، (١٣/ ١٩):
(٨) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٩٢)
(٩) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٩٢): «فتواجه الفريقان وتقابل الجيشان، وأسفر وجه الإيمان واغبر وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء على عبدة الصلبان، ..... فأمر السلطان النفاطة أن يرموه بالنفط، فرموه فتأجج نارا تحت سنابك خيولهم» «فقتل منهم ثلاثون ألفا في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفا من شجعانهم وفرسانهم»
(١٠) أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، المحقق: إبراهيم الزيبق، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م، (٣/ ٢٨٤).
(١١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٢/ ٣٩٢)

المنصور"[١] ، أو "السلطان المنصور" [٢] وخاصة من البيتين الزنكي والأيوبي مثل نور الدين زنكي والملك العادل أخو صلاح الدين[٣]، وكذلك مع بقية الحكام[٤] ، وتتبع شرعية هؤلاء من العدل الذي يربطه يربطه مباشرة بالتمسك بالشريعة وإقامة الحدود ونصرة الجماعة، فالحاكم في الشام ليس مجرد صاحب سلطة، بل هو "ولي أمر" يكتسب مشروعيته من العدل وقتال الصليبيين .

في المقابل، غالباً ما كان يصف حكام المناطق البعيدة في فارس وخراسان (مثل البويهيين أو بعض أمراء السلاجقة في بداياتهم) بـ "المتغلبين "أو "ملوك الأطراف" [٥]، ويمكن ان نستشف من ذلك انه يشير به إلى إلى من استولى على الحكم بالقوة والقهر (السيف) دون بيعة شرعية أو تفويض حقيقي من الخليفة، وإن كان قد حصل على العهد من الخليفة حقناً للدماء، كما ان وصفهم بملوك الأطراف يوحي بأنهم يحاولون اقتطاع جزء من أرض الخلافة والانفصال عن المركز، وبمقارنتهم بما يقوم به أهل الشام من حماية أرض الإسلام والدفاع عنها يجعلهم في مرتبة أدنى منهم، فضلا عن ذلك كانت نظرة ابن كثير الى بعض الحكام خاصة البويهيين تسقط عنهم صفة العدل بسبب ميولهم الدينية ومخالفتهم للجماعة وارتباط حكمهم بانتشار البدع فيقبح أفعالهم ويصف أموالهم بأنها أموال زنادقة[٦] ، ويصف فترات حكمهم بـالطغيان والبغي والتمرد والتجاوز على أسماء الخالق حتى تسموا بأسمائه (ملك الأملاك) فسلبهم الله نعمته التي آتاهم[٧].

تتبلور صورة المشرق في "البداية والنهاية" ككتلة سياسية وعسكرية واحدة من حيث المصير، رغم تباعدها الجغرافي، فالعراق هو رمز الشرعية بوجود الخليفة، والشام هي الدرع الواقي من هجمات الصليبيين، وفارس وخراسان وما وراء النهر هي المدد والجيوش، ويرى ابن كثير أن الخلل في أي جزء من هذه المنظومة العسكرية يؤدي بالضرورة إلى انهيار الجزء الآخر كما حدث عند اجتياح المغول للمشرق وسقوط الخلافة، وأضاف ابن كثير إلى تلك الشرعية اسباباً أخلاقية وعقدية فبينما يُعطي وصفاً لحكم المتغلب في فارس كأمر واقع لتجنب الفتنة، فإنه يمنح الملك العادل في الشام شرعية دينية كاملة تجعل من طاعته واجباً دينياً وضرورة.

المبحث الرابع
صورة المشرق في مواجهة الأزمات

يرصد ابن كثير التحولات الكبرى في المشرق لا كحوادث عابرة، بل كـ سنن إلهية، ويربطها بقدر الله الذي لا راد لقضائه. يتناول هذا المبحث أربعة أنواع من الأزمات: الاجتياح الخارجي المغولي، والصليبي، الأوبئة والمجاعات، والفتن الداخلية، مستعرضاً اثارها على البيئة والناس.

المطلب الأول: الاجتياح المغولي للمشرق الإسلامي

يتابع ابن كثير مجيء المغول وخروجهم من أطراف الصين الى بلاد تركستان ومن ثم الى بلاد ما وراء النهر وسمرقند وبخارى وغيرهما، واستيلائهم عليها وفعلهم بأهلها ما يذكره في تأريخه، وكان سقوط مدن ما وراء النهر هو الحدث الأكثر إيلاماً في رواية ابن كثير لأحداث سنة (٦١٧ه)، واصفاً أن سقوط هذا الحاجز بيديهم قد فتح لهم معبراً الى خراسان فاستطاعوا ان يتملكوها ويخربوها ويفتكوا بأهلها وعبروا منها الى الري وهمذان وبلد الجبل حتى حدود العراق[٨] ، فتفاقم خطرهم وتزايدت شدة دمارهم، إذ امتد

---

(١) المصدر السابق، (١٢/٣٥)
(٢) المصدر نفسه، (١٣/٣٤٤،٣٤١، ٣٥٠)
(٣) المصدر نفسه، (١٢/١٤٠، ٢٢٤)
(٤) المصدر نفسه، (١٢/٣٥٤، ٣٦٣، ٣٨١)، (١٣/٧٣، ١٦١، ٣٣٧، ٤٠٥)
(٥) المصدر نفسه، (١١/١٩٢)، (١٢/١٩، ١٠٨، ١٦٩، ٢٧٥، ٢٨٣)، (١٣/٣٢٣)
(٦) المصدر نفسه، (٨/٢٢٠)، (١١/٢٥٤)، (١١/٢٩٧)
(٧) ينظر المصدر نفسه (١٢/٥٦) وفي هذا إشارة الى ما خوطب أبو منصور بن جلال الدولة بـ (الملك العزيز)، وهو مقيم مقيم بواسط، وهذا العزيز آخر من ملك بغداد من بني بويه، ويعود ابن كثير هنا ليذكر بارتباط انهيار الحكم وسقوطه بالظلم والابتعاد عن الدين فيستشهد بقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الآية من سورة الرعد: ١١.
(٨) المصدر نفسه، (١٣/ ١٠٣):

تأثيرهم التخريبي من أقاصي الشرق في بلاد الصين وصولاً إلى أراضي العراق والمناطق المجاورة لها، حتى بلغ زحفهم مدينة إربل وضواحيها[١].

وقد تناول ابن كثير الاجتياح المغولي للمشرق الإسلامي من خلال محورين اتضحت فيه صورة المشرق خلال تلك الاحداث:

١. **وصف بشاعة الحدث:** يؤكد ابن كثير ما أجمع عليه المؤرخون من أن هذه الكارثة تُمثل سابقة لم تشهد البشرية مثيلاً لها منذ بدء الخليقة؛ فلو زعم زاعم أنها الفاجعة الأكبر في تاريخ الإنسانية لكان قوله صائباً ومؤيداً بالحقائق، إذ لا تنقل ولا تحتوي كتب التاريخ على واقعة تضاهيها هولاً، وحتى نكبة بيت المقدس وتدميرها على يد بخت نصر وما ألحقه ببني إسرائيل من تقتيل، لا يمكن مقارنتها بحجم الدمار الشامل والخراب الواسع الذي خلفه هؤلاء في شتى الأمصار[٢].

ويذكر في أحداث سنة (٦٥٦هـ): كيف نكبت بغداد بدخول المغول اليها ويدرج ذلك الوصف المأساوي لسقوط دار الخلافة[٣] ، كما صور ابن كثير نهاية العالم في عين الناس من خلال استباحة المدينة، إذ تحولت الحاضرة التي عُرفت بكونها أكثر المدن ازدهاراً وإعماراً إلى أطلال خاوية، فتقلص عدد سكانها بشكل حاد، وعاش من بقي منهم في ظروف قاسية اتسمت بانعدام الأمن، وتفشي الجوع، وأثقلت كواهلهم وطأة الفقر، وكسرت نفوسهم مرارة الخوف والمهانة[٤].

٢. **صورة "التتار:** الوصف النفسي والعسكري للمغول كقوة تدميرية خارقة، إذ يصف ابن كثير في أحداث (سنة ٦٥٦هـ) كيف مالوا على البلد وقتلوا كل من قدروا عليه رجالاً ونساءً صغيرا وكبيراً ولم ينجُ منهم أحد إلا أهل الذمة[٥] . كما أشار ابن كثير إلى أن نكبة بغداد لم تكن عسكرية فقط، بل تحولت المدينة إلى بؤرة للأمراض بسبب كثرة القتلى[٦] ، ودخلوا بغداد بسيوف حادة، وقلوب قاسية فقتلوا من قتلوا، وخربوا دار الخلافة التي كانت مقصد الناس، وبطلت الجمعة والجماعات، وانقضت دولة العباسيين[٧] .

يمثل هذا الحدث في كتاب البداية والنهاية نموذجاً لوصف الحالة المأساوية للمشرق الاسلامي سياسياً وعسكرياً ونعني بها انهيار الرمز وسقوط الهيبة، وكعادته يربط ابن كثير ذلك بقدر الله الذي لا يرد ويورد آيات تناسب الاحداث «قَالَ تَعَالَى (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ)، وَقَالَ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بقوم سوء فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) [٨].

المطلب الثاني: الاجتياح الصليبي وأثره في بلاد الشام والمشرق الإسلامي:

يركز ابن كثير هنا على الشام كخط دفاع أول ويصور الصدمة الحضارية والاجتماعية التي عمت بلاد الشام عند احتلال بيت المقدس سنة (492ه)، إذ اقتحم الفرنج بيت المقدس وقتلوا أكثر من ستين ألف مسلم، وعاثوا في الأرض فساداً ونهبوا ذخائر المسجد الأقصى من ذهب وفضة، ففر الناس بدمائهم نحو العراق مستنجدين بالخليفة والسلطان[٩] . وقد ترك هذا الأمر أثرا نفسياً واجتماعيا في نفوس الناس مما أحدث صدمة كبرى في الوجدان الإسلامي إذ احتل الفرنج بلادهم وأعتدوا على مقدساتهم وأحدثوا ثغرة في أراضيهم وأنشأوا إمارات صليبية فيها ولم يتنازلوا عن مقصدهم في رد الصليب وبلاد الساحل وبيت المقدس[١٠] ، ومن آثار هذا الغزو ما أحدثه الفرنج من نهب وسلب للمدن والمتاع كما حدث في انطاكية ومعرة النعمان وطرابلس[١١] وتضييق الخناق على المدن الداخلية بسيطرتهم على مدن السواحل

---

(١) المصدر نفسه، (١٣/١٠٣)
(٢) المصدر نفسه، (١٣/ ١٠٣):
(٣) المصدر نفسه، (١٣/٢٣٣)
(٤)المصدر نفسه، (١٣/ ٢٣٥)
(٥) «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٣٥)
(٦) المصدر نفسه، (١٣/ ٢٣٦)
(٧) المصدر نفسه، (١٣/٢٣٣)
(٨) الآيات على التوالي: نوح: ٤، الرعد: ١١ ينظر: ابن كثير، المصدر نفسه، (١٣/ ٢٣٣):
(٩) المصدر نفسه، (١٢/١٩١)
(١٠) المصدر نفسه، (١٢/ ٤٢١)
(١١) المصدر نفسه، (١٢/١٩١)، (١٤/٣٦٨)

وحصارها مثل عكا وصور وصيدا[١] ، كما أشار ابن كثير إلى غارات قادة الصليبيين (مثل صاحب الكرك) على قوافل التجار والحجاج[٢]، ونهبهم لأموالهم وقتلهم، مما أدى إلى شلل في حركة التجارة البرية، وهو ما اعتبره ابن كثير من أعظم المنكرات التي استوجبت التحرك العسكري الشامل لصلاح الدين.

ويصور ابن كثير التحول من حالة "الاستكانة" إلى "المقاومة" مع ظهور عماد الدين زنكي وصلاح الدين، مبرزاً أثر التعاون بين مصر والشام في طرد الصليبيين، حيث بدأوا بصد هجماتهم والأغارة عليهم واسترجاع المدن منهم حتى كانت سنة(٤٩٧ه) فقتل المسلمون اثني عشر ألفا من الفرنج، وأسر بردويل صاحب الرها، وفي سنة (٥٣٩ه) أخذ العماد زنكي الرها وغيرها من حصون الجزيرة من أيدي الفرنج [٣]، وتوالت الانتصارات بمعركة حطين وفتح القدس (٥٨٣ه)[٤] وقد ذكرنا في مبحث الصورة السياسية والعسكرية للمشرق الإسلامي وصف ابن كثير لمعركة حطين الفاصلة في المطلب الرابع.

المطلب الثالث: الأوبئة والمجاعات (الأزمات البيولوجية)

يهتم ابن كثير بتدوين تاريخ الأوبئة والمجاعات التي حدثت في المشرق الاسلامي وأثره على البنية السكانية، وقد أسهب برصد تلك الاحداث، مؤكداً أنها كانت عوامل تاريخية حاسمة غيّرت التركيبة السكانية للمنطقة، ويمكن ان نقف على الصورة التي رسمها ابن كثير للأوبئة التي اجتاحت المشرق الإسلامي من خلال ما يأتي:

١. الأوبئة الناتجة عن "فساد الهواء" والحروب

يرى ابن كثير أن أحد أخطر الآثار الصحية للحروب الصليبية وما تبعها من حصارات هو تغير الجو وفساد الريح إذ أدت المجازر الكبرى (مثل حصار عكا) وبقاء آلاف الجثث دون دفن إلى تعفن الجثث وانبعاث روائح نتنة أفسدت الهواء[٥] ، مما أدى الى انتشار أوبئة فتكت بالناجين وبجيوش الغزاة أنفسهم، ويذكر ان السلطان "تحول عن مكانه الأول إلى موضع بعيد من رائحة القتلى خوفا من الوخم والأذى"، وكذلك ما حصل عند دخول المغول الى بغداد سنة (٦٥٦ه) إذ امتلأت الشوارع بالجثث المتكدسة التي غطتها الأمطار، وتعفنت فحصل منها الوباء وتجاوزت العدوى لتصل إلى بلاد الشام المجاورة، وحصدت أرواح عدد لا يحصى من الناس نتيجة لتغير الأجواء وتلوث البيئة[٦].

٢. **الطواعين العظمى :**رصد أثر الأوبئة في العراق والشام (مثل طاعون سنة ٧٤٩هـ الذي عاصره ابن كثير)أفرد ابن كثير مساحات واسعة للحديث عن الطواعين التي ضربت الناس زمن الدولتين الأموية والعباسية، معتبراً إياها محطات فاصلة أثرت على مسار الحكم والحياة الاجتماعية، وفضلاً عن ذكره لكلمة الوباء فقد تردد ذكر كلمة الطاعون في كتابة كثيراً والتي عدها اللغويون وباءً فقالوا: "وكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون" وقال الخليل وغيره: الوباء هو الطاعون[٧] ، وقد نقل ابن كثير أن الخليفة أبو أبو جعفر المنصور تفاخر يوما أمام رجل من أهل الشام قائلاً: "احمد الله يا أعرابي الذي دفع عنكم الطاعون بولايتنا" [٨]، ومن الطواعين التي اصابت الناس في العصر العباسي وذكرها ابن كثير طاعون أرض فارس سنة (٢٩٩ه) والذي مات فيه سبعة آلاف إنسان[٩] ، وفي احداث سنة (٣٦٧ه) يذكر «إن أهل بغداد قد قلوا كثيرا بسبب الطاعون»[١٠]، أما سنة (٤٤٩ه) فتُعد من أصعب السنوات التي وصفها ابن كثير، حيث اجتمع فيها الوباء والغلاء، وكان يطلق عليه الوباء العظيم، ويصف الكارثة التي حلت ببغداد إذ كان الموت من الكثرة حتى خلت أكثر الدور من أهلها وأغلقت البواب واوحشت الطرقات

---

(١) المصدر نفسه، (١٤٣/١٣)
(٢) المصدر نفسه، (٣٨٧/١٣)
(٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٠١، ٢٧٢)
(٤) المصدر نفسه، (٣٩٤/١٢)
(٥) المصدر نفسه، (٤٠٦/١٢)
(٦) المصدر نفسه، (١٣/ ٢٣٦):
(٧) ينظر الحاشية ابن كثير، المصدر نفسه، (٥/٢)
(٨) المصدر نفسه، (١٠/ ١٣١):
(٩) المصدر نفسه، (١١/ ١٣١)
(١٠) المصدر نفسه، (١١/ ٣٢٨):

والاسواق، ووصف ابن كثير مشاهد مأساوية، مثل أكل الناس للجيف والكلاب، بل حتى روى انه قد قتل أحدهم واكله الناس من شدة الجوع الذي مهد للوباء، وزهد الناس بأموالهم ولذاتهم فأريقت الخمور وكسرت آلات اللهو ولزموا المساجد[١]، وكان هذا تحولاً أخلاقياً في سلوك الناس سببه الوباء، ولم يقتصر يقتصر الأمر على بغداد، بل نقل عن كتب وردت من بخارى أن الوباء فتك بـثمانية عشر ألف شخص في يوم واحد، وفي أذربيجان هلك خلق كثير لا يحصون[٢].

وقد عاصر ابن كثير واحدة من أبشع الكوارث الصحية في تاريخ البشرية، وهي الطاعون الأعظم[٣] الذي [٣]الذي اجتاح العالم سنة (749هـ) وما ميز هذ الحدث أنه لم يكن ناقلاً للتاريخ فحسب، بل كان شاهد عيان عيان يصف المأساة التي رآها بعينيه في دمشق[٤] ، ذكر ابن كثير أن الوباء بدأ في أطراف البلاد وتواترت وتواترت الاخبار بوقوعه في بلاد القرم والفرنج ثم انتقل إلى بلاد الشام ومصر[٥] ، وفي دمشق دخل الوباء المدينة في ربيع الآخر سنة (٧٤٩هـ)، وبدأ يتزايد تدريجياً حتى وصل إلى ذروته في شهر شعبان و رمضان[٦] ، كما وصف أعراض المرض، بانشقاق القلب عن دم المهجة يتبعها بصاق الدم ثم الموت السريع[٧]. ويزودنا ابن كثير بإحصائيات تصور حجم الكارثة فيذكر عدد الوفيات في حواضر البلد إذ وصل في بعض الأيام إلى أكثر من ألف شخص، وإن الصلاة على الجنائز كانت لا تنقطع وأحيانا لا يتسع الجامع لصف الموتى، وعجز الناس عن حفر القبور الفردية، فكانوا يحفرون خنادق يضعون فيها الأموات معاً[٨].

٣. المجاعات والغلاء :

يعد ابن كثير من أبرز المؤرخين الذين رصدوا الأزمات الاقتصادية في التاريخ الإسلامي والنتائج الاجتماعية المترتبة عليها، لا سيما "المجاعات" التي ضربت المشرق في العصر العباسي، وقد اتسم منهجه في وصفها بالدقة والربط بين المتغيرات السياسية والطبيعية، كما ذكر في كتابه كيف كان القحط يؤدي إلى تفكك الروابط الاجتماعية وبروز ظواهر لم يعتد عليها الناس كشيوع السرقة، وأكل الميتة، وكان يربط ذلك بـالظلم والمكوس التي كان الحكام يرفعونها عن كاهل الناس حين توليهم [٩].

اعتمد ابن كثير في وصفه للمجاعات على الحوليات (التأريخ بالسنوات)، حيث كان يفتتح الحادثة بذكر السنة، ثم يحدد النطاق الجغرافي للمجاعة فيقول مثلاً: «ثم دخلت سنة ستين ومائتين وفيها وقع غلاء شديد ببلاد الإسلام كلها حتى أجلى أكثر أهل البلدان منها إلى غيرها، ولم يبق بمكة أحد من المجاورين حتى ارتحلوا إلى المدينة وغيرها من البلاد، وخرج نائب مكة منها. وبلغ كر الشعير ببغداد مائة وعشرين دينارا، واستمر ذلك شهورا»[١٠] ، وفي أحداث سنة (٢٠٢ه) يقول: «وفيها أصاب أهل خراسان والري وأصبهان مجاعة شديدة وغلا الطعام جدا»[١١] ، وفي سنة (٤٥٠ه) أيام فتنة البساسيري وهو أرسلان التركي يذكر أن الناس كانوا في مجاعة وضر شديد وكثر النهب في بغداد وخطفت العمائم من الرؤوس [١٢]، ويصف ابن كثير أيام السلطان كتبغا سنة (٦٩٦ه) كيف انعزل في حصنه وأطلق عدداً من المكوس

---

(١) المصدر نفسه، (٩٨/١٢)
(٢) المصدر نفسه، (٩٨/١٢)
(٣) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي، الطنجي، أبو عبد الله، (ت ٧٧٩هـ) رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، الناشر: أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧ هـ، (٣٢٥/١-٣٢٦).
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٢٦١/١٤).
(٥) المصدر نفسه، (٢٦٠/١٤)
(٦) المصدر نفسه، (٢٦١/١٤، ٢٦٣، ٣٤٥)
(٧) المصدر نفسه، (٨٩/١٢، ٩٨)
(٨) المصدر نفسه، (٢٦٢/١٤، ٢٦٣، ٢٦٥)
(٩) المصدر نفسه، (١١/ ٣٣٥)، (١٢/ ٣٤٤)
(١٠) المصدر نفسه، (١١/ ٣٨):
(١١) المصدر نفسه، (١٠/ ٢٧٠):
(١٢) المصدر نفسه، (١٢/ ٩٦)، والبساسيري هو أرسلان بن عبد الله "البساسيري"، زعيم الأتراك في بغداد ومملوك بهاء الدولة البويهي. عَظُم شأنه حتى خلع طاعة الخليفة العباسي "القائم بأمر الله" وخطب للمستنصر العبيدي (صاحب مصر).

لتخفيف العبء عن الناس، إلا أن التضخم بلغ ذروته بوصول سعر الغرارة إلى مائتين، مما أدى إلى أزمة اقتصادية خانقة وسوء في الأحوال[١] ، وذكر ابن كثير أيضاً أن سنة (٦٩٥ه) شهدت غلاءً مفرطاً ومجاعة شديدة وفناءً في ديار مصر؛ حيث ندرت الأقوات وكثر الموتى حتى دُفن جمع من الأموات في حفيرة واحدة، وبلغ عدد الوفيات في شهر صفر وحده نحو (١٣٠) ألفاً، كما امتد الغلاء إلى الشام فارتفعت الأسعار بشكل فاحش وبلغت الغرارة إلى مائتين[٢].

ولم يكتفِ ابن كثير بذكر حدوث المجاعة أو الغلاء، بل كان يوثق أسعار السلع الأساسية (كالقمح والشعير) مقارنة بالأوقات العادية، مستخدماً وحدات القياس والعملة السائدة آنذاك (كالكر والدينار) ، ففي احداث سنة (٦٩٩ه) أيام وقعة قازان في دمشق ودخول التتار بلاد الشام يذكر تفاصيل دقيقة عن الأسعار وما حدث فيها «والأسعار في غاية الغلاء والقلة، وقد بلغت الغرارة إلى أربعمائة، واللحم بنحو العشرة، والخبز كل رطل بدرهمين ونصف، والعشرة الدقيق بنحو الأربعين، والجبن الأوقية بدرهم، والبيض كل خمسة بدرهم »[٣]، وفي احداث سنة (٧٤٨ه): «ولم يشعل الناس [القناديل] لما هم فيه من الغلاء وتأخر المطر وقلة الغلة، كل رطل إلا وقية بدرهم، وهو متغير، وسائر الأشياء غالية، والزيت كل رطل بأربعة ونصف، ومثله الشيرج والصابون والأرز والعنبريس كل رطل بثلاثة، وسائر الأطعمات على هذا النحو، وليس شيء قريب الحال سوى اللحم بدرهمين وربع »[٤] ، وفي أحداث سنة (٣٩٣ه): «غلت الأسعار ببغداد جدا، وعدمت الحنطة حتى بيع الكر بمائة وعشرين دينارا»[٥].

وكان يرجع أسباب تلك المجاعات الى اسباب طبيعية مثل انحباس المطر (الجفاف)، أو البرد الشديد والرياح والفيضانات التي تتلف المحاصيل وتقتلع الأشجار[٦] ، أو الأوبئة التي تتبع المجاعات عادة، يقول ابن كثير: «وقاسى الناس شدة عظيمة، وتأخر المطر وزيادة دجلة، وقلت الزراعة، وامتنع كثير من الناس عن التصرف.» وكان دائما ما يربط الغلاء بقلة المطر: «ووقع بإفريقية في هذه السنة غلاء شديد بسبب تأخر المطر» و «وكان في هذه السنة غلاء شديد بسبب قلة المطر،» وبالعكس عندما يزيد المطر: «ووقع في أواخر رمضان مطر قوي شديد، وكان الناس لهم مدة لم يُمطروا، فاستبشروا بذلك، ورخصت الأسعار» [٧] كما أورد روايات عن وجود جراد كثير انتشر، ثم تزايد وتراكم وتضاعف وساء الأمر بسببه، وملأ الارض وأفسد الكروم والزرع، وأتلف كثيرا من المحاصيل، وارتفعت الأسعار ونقصت الثمار، فبيع قنطار الدبس بما فوق المائتين[٨] ، وأحيانا الى أسباب سياسية وعسكرية فقد أشار بوضوح إلى أثر الفتن الداخلية، والحروب (مثل غارات التتار كما مر معنا)، وقطع طرق القوافل، مما يؤدي إلى انقطاع الإمدادات الغذائية وغلاء الأسعار.

وكما مضى معنا فإن ابن كثير كان يربط وقوع هذه الكوارث بالجانب الأخلاقي والشرعي، معتبراً إياها أحياناً ابتلاءً أو عقوبة تستوجب التوبة والرجوع إلى الله، وكان يكثر في هذه المواضع من قول "إنا لله وإنا

تسبب بخروج الخليفة من بغداد لعام كامل، حتى استنجد الخليفة بـ "طغرلبك" السلجوقي الذي هزم البساسيري وقتله في ١١ ذي الحجة سنة ٤٥١ هـ، ليعود الخليفة إلى بغداد ويُطاف برأس البساسيري فيها. ينظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، ج٨، ص٢٢١.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٣/ ٤١١)، و (الغرارة) هي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه وهو أكبر من الجوالق (ج) غرائر، ينظر: نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، الناشر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة: الثانية [كُتِبَتْ مقدمتُها ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م]، وصَوَّرَتْها: دار الدعوة بإستانبول، ودار الفكر ببيروت، وغيرهما كثير، (٢/ ٦٤٨).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٤٠٥/١٣)

(٣) المصدر نفسه، (١٤/ ١٢)

(٤) المصدر نفسه، (١٤/ ٢٥٨)

(٥) المصدر نفسه، (١١/ ٣٨١)

(٦) المصدر نفسه، (٩٠/١١)، (١٢١/١١)،

(٧) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٥، ٦١، ٣٦٨)، (١٤/ ٥٢)

(٨) المصدر نفسه، (١٤/ ٣٥٠، ٣٥١)

اليه راجعون"[١] كما كان يمتدح الخلفاء أو الوزراء الذين تدخلوا لتوزيع الصدقات وفتح مخازن الغلال وإلغاء الضرائب للتخفيف عن الناس.

ومن أبشع ما وصف به ابن كثير الاثار الاجتماعية للمجاعات ما ذكره في أحداث سنة (٢٨٠ه) عندما ارتفعت الأسعار وصعبت حياة الناس لدرجة أن بعضهم أكل بعض، فكان الرجل يأكل أولاده[٢] في أحداث سنة(٤٦٢ه) ان مصر كانت تعاني من غلاء شديد ودفعت المجاعة الناس إلى أكل الجيف والميتات والكلاب، حتى بلغ ثمن الكلب الواحد خمسة دنانير، وماتت الفيلة وأكلت جيفها، ونفقت معظم الدواب ووصل اليأس منتهاه، وكان إحضار الطعام إلى المدينة محفوفًا بالمخاطر من قبل الأعراب، واضطر الناس لدفن موتاهم ليلًا خوفًا من نبش قبورهم[٣] .

المطلب الرابع: الفتن الداخلية والحركات:

ينظر ابن كثير إلى الفتن كظاهرة مرتبطة بالابتعاد عن النهج القويم أو الصراع على السلطة، وقدر صد في تاريخه تلك الفتن سنة بسنة وفقاً لمنهجه في الحوليات، الأمر الذي يعطي لقارئه صورة جلية عن تصاعد حدة الاضطراب السياسي في المنطقة، إذ ربط بين الفساد السياسي والاضطراب الاجتماعي موضحاً كيف أدت الصراعات في قصور الخلافة إلى انفلات الأمن في الحواضر الكبرى للمشرق الاسلامي.

وقد رصد ابن كثير عددا من الفتن التي حدثت أيام العباسيين يمكننا ان نصنفها وفقاً لطبيعتها والأطراف المشاركة فيها:

١. صراعات البيت العباسي:

تُعد الفتنة الكبرى بين الأمين والمأمون (١٩٣ - ١٩٨هـ) من أشد الصراعات التي شهدها البيت العباسي خطورة، والتي كانت حدثاً مهماً التاريخ الإسلامي، وكان السبب السياسي فيها هو الصراع على ولاية العهد وتدخل الحاشية، ويرى ابن كثير أن بذور الفتنة زُرعت في عهد والدهما هارون الرشيد، فيذكر ابن كثير ان الرشيد شكا أثناء سفره إلى بعض أمرائه من جفاء أولاده الثلاثة، الذين عيّنهم خلفاء له من بعده، وقال إنهم يتمنون ويرتقبون موته، وكان مريضاً حينها معتبراً أن ذلك فيه ضرر لهم لو كانوا يدركون العواقب[٤] ، وبعد وفاة الرشيد وتولي الأمين حصلت جفوة بين الأخوين زادها تدخل الفضل بن الربيع والحاشية حتى غير نيته في أخويه، وحسّن له خلع المأمون والقاسم وقلل من شأنهما، فأمر بالدعاء لولده موسى وبولاية العهد من بعده، الأمر الذي جعل المأمون يتنكر للأمين، وفي سنة (١٩٥ه) جهز الأمين جيشاً بقيادة علي بن ماهان ليأتي بالمأمون ولم يفلح في ذلك، وندم محمد الأمين على ما بدر منه حين نكث العهد وخلع أخاه المأمون[٥] ، الا ان الامر لم يستقم بينهما وتحول الخلاف السياسي إلى صدام مسلح انتهى انتهى بقتل الأمين ودُعي الناس الى بيعة أخيه المأمون[٦] ، وقد وصف ابن كثير تلك الفتنة بأنها أدت إلى تمزق الدولة وانتهاك حرمة بغداد، وانقسم الناس فيها بين عرب (مع الأمين) وعجم خراسانية (مع المأمون)، فضلاً عن حصار بغداد ونَصب المجانيق والعرادات على قصر الأمين وما آلت إليه أحوال الرعية، وعظم البلاء وشمل الخوف سائر الناس، ونهبت الأموال[٧] واستقر الأمر للمأمون بعد قتل أخيه الأمين.

٢. الصراع بين أمراء البيت الأيوبي:

شكلت وفاة الناصر صلاح الدين الأيوبي عام (٥٨٩ه) منعطفاً تاريخياً حرجاً للأسرة الأيوبية وللعالم الإسلامي ككل؛ فقد خلّف رحيله فراغاً سياسياً عميقاً يصعب ملؤه، نظراً لما كان يتمتع به من شخصية

---

(١) المصدر نفسه، (٤١١/١٣)، (٢٥٥/١٤، ٣٣٩، ٣٥٠)
(٢) المصدر نفسه، (٨١/١١)
(٣) المصدر نفسه، (١٢١/١٢)
(٤) المصدر نفسه، (١٠/ ٢٢٤)
(٥) المصدر نفسه، (١٠/ ٢٤٣، ٢٤٤،٢٤٥، ٢٤٦)
(٦) المصدر نفسه، (٢٥٧/١٠)، (٢٦٢/١٠)
(٧) المصدر نفسه، (٢٥٩/١٠)

قيادية وحنكة سياسية وعسكرية استثنائية، وقد وضع هذا الإرث الثقيل خلفاءه من الأبناء والإخوة أمام تحدٍ كبير، إذ جاء بعده حكام افتقروا لمقومات الإدارة والسياسة، مما عجل بتراجع الدولة وبداية أفول نجمها.

٣. صراع الملك العادل مع الملك الظاهر غازي[١] :

قام صلاح الدين الأيوبي بتوزيع أقاليم الدولة بين أبنائه وأخيه؛ فجعل حكم مصر لابنه العزيز عماد الدين، ومنح ابنه الأكبر الأفضل نور الدين ولاية دمشق وما يتبعها، فيما تولى ابنه الظاهر غياث الدين مملكة حلب. أما أخوه العادل أبو بكر، فقد اختصه بحكم الكرك والشوبك وقلعة جعبر وغيرها، وعقب وفاة صلاح الدين، شهدت شؤون الدولة اضطراباً ونزاعات في مختلف الأقاليم، واستقرت الأوضاع في نهاية المطاف [٢]، وتوحدت الممالك تحت قيادة الملك العادل أبي بكر صلاح الدين الذي يحلم ان يسيطر على حلب الا انه أبقاها بيد الظاهر غازي لأنه زوج ابنته[٣] .

٤. صراع الأفضل مع أخيه العزيز:

توجه الملك العزيز عماد الدين، حاكم مصر، إلى دمشق لانتزاعها من أخيه الملك الأفضل نور الدين، وقد قاومه الأفضل ممتنعاً عن تسليمها، مما أدى إلى تصاعد الصراع الذي تخلله قطع المياه وتخريب الزرع، وساءت الأوضاع واستمر هذا النزاع حتى تدخل عمهما الملك العادل وأعاد الأمور الى نصابها بعد أداء الأيمان؛ واتفقوا على أن يُمنح العزيز مدينة القدس وما جاورها من أراضي فلسطين، وأن تُلحق جبلة واللاذقية بحكم أخيهما الظاهر (صاحب حلب)، بينما احتفظ الملك العادل بإقطاعاته السابقة في مصر مضافةً إلى أملاكه في بلاد الشام والجزيرة[٤] .

ومن النتائج التي يخلص اليها ابن كثير من هذه الصراعات هي ان بني أيوب قد أصبحوا أحزابا وفرقاً، فقد شهدت سنة (٦٢٦ ه) تشرذمهم وتنازعهم؛ الامر الذي جعل الفرنجة يستغلون هذا الضعف، لاسيما بعد وفاة المعظم وتوافد الإمدادات البحرية إليهم، فقويت شوكتهم وطالبوا باستعادة الأراضي التي فتحها صلاح الدين، وانتهى الأمر بعقد صلح أيام الملك الكامل تنازل بموجبه الأيوبيون للفرنجة عن مدينة القدس وحدها، مع الإبقاء على باقي البلاد بيد المسلمين[٥] .

٥. الفتن المذهبية

ينظر ابن كثير للفتنة المذهبية باعتبارها انحرافاً عقديّاً يُؤدي إلى فساد سياسي واجتماعي، ويصنف ابن كثير الأطراف المتصارعة بناءً على اقترابها أو ابتعادها عن منهج الجماعة والسلف الصالح، كما يرى أن الفتنة المذهبية غالباً ما تنتعش في ظل ضعف السلطة المركزية أو تبني السلطة لمذهب دون آخر (مثل تبني المأمون للاعتزال)، ولم يكتفِ بذكر الخلافات بين العلماء، بل ركز على الفتن التي انتشرت بين العوام وكيف كان الصراع الفكري يتحول إلى حرق للأسواق وقتل في الشوارع.

ومن اهم الفتن التي رصدها ابن كثير في كتابه:

أ- الصدامات بين الطوائف في بغداد

---

(١) «الملك العادل هو أبو بكر محمد ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدويني الأصل، التكريتي، ثم البعلبكي المولد. ولد بها إذ والده ينوب بها للأتابك زنكي بن آقسنقر في سنة أربع وثلاثين وخمس مائة. كان أصغر من أخيه صلاح الدين بعامين، -وقيل: بل مولده في سنة ثمان وثلاثين..... وسيرته مع أولاد أخيه مشهورة، ثم لم يزل يراوغهم ويلقي بينهم حتى دحاهم، وتمكن واستولى على ممالك أخيه» ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء - ط الحديث، مصدر سابق، (١٦/ ١٢٠): والظاهر غازي هو «سلطان حلب، الملك الظاهر، غياث الدين، أبو منصور، غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. مولده بمصر في سنة ثمان وستين وخمس مائة.» ينظر: المصدر السابق، (١٥/ ٤٢١).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٩/١٣)

(٣) المصدر نفسه، (٩٥/١٣)

(٤) المصدر نفسه، (١٢/١٣)

(٥) المصدر نفسه، (١٤٤/١٣)، المعظم هو: «السلطان الملك المعظم ابن العادل، هو شرف الدين عيسى بن محمد الحنفي، الفقيه، صاحب دمشق مولده بالقصر من القاهرة، في سنة ست وسبعين وخمس مائة.» ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، (١٦/ ١٢٣): والكامل هو: «السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدنيا والدين، أبو المعالي، وأبو المظفر محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب مصر والشام وميافارقين وآمد وخلاط والحجاز واليمن وغير ذلك، ولد في سنة ست وسبعين وخمس مائة، فهو من أقران أخويه المعظم والأشرف، وكان أجل الثلاثة وأرفعهم رتبة.»، ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، (١٦/ ١٢٧).

رصد ابن كثير بدقة التكرار السنوي للصدامات التي حصلت في حي الكرخ وباب البصرة من بغداد مناسبات ولأسباب مختلفة، وكان يصفها بالفتنة العظيمة ويشير الى قتل خلق كثير من الفريقين فضلا عن تخريب الممتلكات وحرق الأسواق[١] وقد وثق لكثير من تلك الصدامات التي حصلت في مناسبات مثل عاشوراء وغدير خم[٢] أو في مشاهد الأئمة كما حصل في مشهد علي بن موسى الرضا بمدينة طوس[٣] ، أو في مشهد موسى بن جعفر وقبر جعفر بن المنصور من نهب وحرق[٤] وكان ينتقد ما يفعله الطرفان ويرجعه الى الجهل والعناد أو مقابلة البدعة ببدعة مثلها أو عكسها، ولا ترفع البدعة إلا بالسنة الصحيحة كما يقول[٥] ، **كما** انتقد ابن كثير بشدة السياسة البويهية التي كانت تُذكي هذه الصراعات وتسمح بسب الصحابة علانية[٦].

ب- النزاع بين الحنابلة والأشاعرة (فتنة القشيري)

في أحداث القرن الخامس الهجري، رصد ابن كثير ما عُرف بـ "فتنة القشيري" (٤٦٩ هـ) في عهد الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله، وتنسب الى الشيخ أبو نصر بن القشيري[٧] ، الذي قدم إلى بغداد ونزل بالمدرسة النظامية، فجلس يتكلم وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، فكان خلافاً عقدياً بين الأشاعرة الذين مثلهم القشيري بدعم من المدرسة النظامية والوزير نظام الملك وبين الحنابلة الذين مثلهم أبو جعفر بن ابي موسى شيخ الحنابلة وتطور الحدث وتحول النقاش من أروقة المدارس إلى شوارع بغداد، مما أدى إلى اقتتال بين العوام وسقوط قتلى[٨] وقام الخليفة بجمعهم لتهدئة الأمور واستدعى ابا جعفر للسلام عليه، وأخرج ابن القشيري من بغداد كي تخمد الفتنة فعاد إلى بلده[٩]، وكان الوعاظ قد منعوا في فتنة ابن القشيري ولم يسمح لهم بالجلوس للوعظ حتى سنة (٤٧٣ه)[١٠].

ويورد ابن كثير اخباراً عن تجدد الفتنة بين الحنابلة وفقهاء النظامية ببغداد وذلك في أحداث سنة (٤٧٠ه) واحتماء كل من الطرفين بالعوام ووقوع قتلى وجرحى بين الطرفين، انتهت بعدها، ليعود من جديد ويذكر في أحداث سنة (٤٩٥ه) وقوع فتنة بين الحنابلة والأشعرية ببغداد[١١] .

ج- الصدامات بين المذاهب والأديان المختلفة:

ويذكر ما عدا ذلك من الفتن التي حدثت بين المذاهب والأديان والأجناس والقبائل والجند وغيرهم، كالفتنة التي حدثت سنة (٥٦٠ه) في اصبهان بين الفقهاء بسبب المذاهب وقد استمرت أياماً، وراح ضحيتها خلق كثير[١٢] . والفتنة التي حدثت بين اليهود والعامة ببغداد في سنة (٥٧٣ه)[١٣] ، والفتنة التي وقعت بالشام سنة (١٧٦ه) بين النزارية، وهم قيس، واليمانية وهم يمن، إذ أعادوا ما كانوا عليه في الجاهلية وقتل منهم

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٢/ ١٣٠): (٤٦٥ه)، (١٢/ ١٨١): (٤٨٧ه)، (١١/ ٢٦٣): (٣٤٦ه)
(٢) المصدر نفسه، (١١/ ٣٥٤): (٣٨١ه)، (١٢/ ٦١): (٤٣٢ه)، (١٢/ ١٥٦) (٤٧٨ه)
(٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٢١): (٥١٠ه)
(٤) المصدر نفسه، (١٢/ ٧٩): (٤٤٣ه)
(٥) يشير بذلك الى يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة وما يقابله يوم حصر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار، ومقابلة عاشوراء باليوم الثاني عشر من المحرم وهو يوم قتل مصعب بن الزبير، ينظر: ابن كثير، المصدر نفسه، (١١/ ٣٧٣): (٣٨٩ه)، (٨/ ٢٢٠).
(٦) المصدر نفسه، (٨/ ٢٢٠)، (١١/١٧٣، ٢٧٦، ٢٥٤)، (١٢/ ٨٦).
(٧) «عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، أبو نصر: واعظ، من علماء نيسابور ((٠٠٠ - ٥١٤ هـ)، من بني قشير. علت له شهرة كأبيه. زار بغداد في طريقه إلى الحج، ووعظ بها، فوقعت بسببه فتنة بين الحنابلة والشافعية، فاستدعاه نظام الملك إلى أصبهان (إطفاء للفتنة ببغداد) فذهب إليه ولقي منه إكراما. وعاد إلى نيسابور، فلازم الوعظ والتدريس إلى أن فلج. وتوفي بها. كان ذكيا حاضر الخاطر، فصيحا، جريئا، يحفظ كثيرا من الشعر والحكايات» ينظر: الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، (٣/ ٣٤٦).
(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٢/ ١٤٠):
(٩) المصدر نفسه، (١٢/ ٢٣٢):
(١٠) المصدر نفسه، (١٢/ ١٤٨)
(١١) المصدر نفسه، (١٢/ ١٤٣، ١٩٩)،
(١٢) المصدر نفسه، (١٢/ ٣١٠):
(١٣) المصدر نفسه، (١٢/ ٣٦٦):

خلق كثير[١] ، كما يذكر الفتنة وقعت بين الأتراك سنة (٢٤٩ه) عندما فوض المستعين العباسي أمر الخلافة والتصرف في أموال بيت المال إلى ثلاثة وهم أتامش التركي، وشاهك الخادم، وأم الخليفة[٢] ، وفي سنة (٢٥١ه) يروي عن فتنة شنعاء وقعت بين جند بغداد وجند سامراء[٣] ، كما تحدث عن فتنة البساسيري التي سبق ان ذكرناها في مطلب المجاعات والغلاء.

د- فتنة "خلق القرآن" (٢١٨ - ٢٣٤هـ)

بالرغم من أنها قضية عقدية، إلا أن ابن كثير يتحدث عنها كفتنة سياسية بسبب استخدام سلطة الدولة (المأمون، المعتصم، الواثق) لفرض رأي المعتزلة في القول بخلق القرآن الذي يتبناه الخليفة، إذ يذكر ابن كثير ان الخليفة المأمون قد بعث الكتب بوجوب امتحان القضاة والمحدثين في هذا الأمر[٤] ، فكانت محنة عظيمة أدت إلى حبس العلماء الذين لم يستجيبوا واقتيادهم وضربهم كالإمام أحمد بن حنبل، الذي ركز ابن كثير على صموده كرمز لمواجهة الاستبداد السياسي بعباءة دينية[٥]، ولم يمتِ المأمون حتى أوصى أخاه المعتصم أن يعتقد ما كان يعتقده في القرآن وأن يدعو الناس إلى ذلك[٦]، واستمر المعتصم بعده على هذا النهج وتبعهما الواثق «وكان من أشد الناس في القول بخلق القرآن، يدعو إليه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون»[٧] ، حتى قتل على يديه أحمد بن نصر الخزاعي وعلقت جثته في الجانب الشرقي أياماً، وفي الغربي أياما، وعنده الحرس في الليل والنهار[٨] ، الى ان قام المتوكل بإنزالها (سنة ٢٣٧ه) وأمر بالكف عن القول بخلق القرآن[٩] .

ه- فتنة صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠هـ)

وقد تحدث ابن كثير عنها بوصفها أخطر وأطول الفتن التي هددت كيان الدولة من الداخل بسبب طابعها الاجتماعي والاقتصادي، معتمداً بشكل أساس على ما نقله الطبري من أحداثها، لكن مع إضافات تعكس رؤيته كعالم وفقيه.

يركز ابن كثير على كشف هوية صاحب الزنج والتدقيق في اسمه ونسبه[١٠] ، ويصفه بأوصاف شديدة القسوة تعكس موقفه الرافض لحركته، ويعالج مسألة ادعاء صاحب الزنج أنه علوي ليجذب الناس إليه، لكنه يرجح كذبه في هذا الادعاء[١١] ، ويصنفه ضمن الخوارج في أفعالهم[١٢] ، نظراً لاستباحته دماء المسلمين وأموالهم، ويصفه بـ "المدعي" و "الخبيث[١٣]"، مشيراً إلى أنه كان يستخدم الشعارات الدينية كغطاء لأهدافه السياسية، كقوله ان النبوة قد عرضت عليه فلم يقبلها[١٤] ، ويوضح ابن كثير في سرده

---

(١) المصدر نفسه، (١٠/ ١٨٠):
(٢) المصدر نفسه، (١١/ ٧):
(٣) المصدر نفسه، (١١/ ١١):
(٤) "في هذه السنة -٢١٨ه- كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن"، "إن كتاب المأمون لما ورد بغداد قرئ على الناس، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه .... فبعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك وأظهروا موافقته وهم كارهون"، (١٠/٢٩٨)
(٥) خصص ابن كثير فصلا في كتاب البداية والنهاية ضمن احداث (سنة ١١٨ هـ) تحدث فيه عن محنة الامام احمد بن حنبل ينظر: ابن كثير، المصدر نفسه، (١٠/٢٩٨)
(٦) المصدر نفسه، (١٠/٣٠٧)
(٧) المصدر نفسه، (١٠/ ٣٣٤):
(٨) المصدر نفسه، (١٠/٢٣٥-٢٣٦)
(٩) المصدر نفسه، (١٠/٣٤٨)
(١٠) يقول ابن كثير عن صاحب الزنج: «زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولم يكن صادقا وإنما كان عسيفا - يعني أجيرا - من عبد القيس، واسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم، وأمه قرة بنت علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة، وأصله من قرية من قرى الري» ينظر: ابن كثير، المصدر نفسه، (١١/ ٢٣):
(١١) المصدر نفسه، (١١/٢٩، ٣٤، ٥٢)
(١٢) المصدر نفسه، (١١/٢٤)
(١٣) المصدر نفسه، (١١/٣٧)
(١٤) المصدر نفسه، (١١/٣٦)

للأحداث كيف استغل صاحب الزنج الأوضاع المتردية في جنوب العراق متوجهاً إلى عمال مزارع الملح والسباخ من الزنج، مستغلاً سوء معاملة مواليهم لهم، ووعدهم بالحرية [١] ، ويشير ابن كثير الى أن "البطائح" (المستنقعات) في جنوب العراق شكلت عائقاً طبيعياً صعباً أمام الجيوش النظامية في قتالها مع صاحب الزنج فكانوا يلاحقونه هناك[٢] ، ويصف ابن كثير يوم سقوط البصرة (٢٥٧ هـ) بيد صاحب الزنج بوصف مأساوي، حيث ذكر أن الزنج أحرقوا المسجد الجامع وقتلوا الآلاف من الناس وفيهم من الأعيان والأدباء والفضلاء والمحدثين والعلماء[٣]، كما يصف ابن كثير مدينة "المختارة" التي اتخذها الزنج عاصمة لهم، وكيف حصنوها وأحاطوها فتحولت إلى مركز لشنّ الغارات على المدن المجاورة، ويبرز ابن كثير دور أبي أحمد الموفق بالله (أخو الخليفة المعتمد) ويشيد بحكمته في إدارة المعارك، وصبره وحيلته عند حصار مدينة (المختارة) عاصمة صاحب الزنج حتى تعجب الزنج من إقدامه وجرأته فتحول خلق كثير منهم الى جانبه [٤]، فاقتحم الموفق وابنه أبو العباس (المعتضد لاحقاً) معاقل الزنج وهرب زعيمهم فطاردوه وقتل وانتهت فتنته في عام (٢٧٠ هـ).

المبحث الخامس

الصورة الاجتماعية والحضارية للمشرق الإسلامي عند ابن كثير

لم يقتصر كتاب البداية والنهاية على تدوين الوقائع السياسية، بل مثّل انعكاساً حيّاً لطبيعة المجتمع الإسلامي في المشرق الاسلامي، يتناول هذا المبحث كيف صور ابن كثير التركيب الاجتماعي، والمؤسسات العلمية، والمظاهر العمرانية التي رصدها في المشرق الإسلامي في ذلك الزمن.

المطلب الأول: صورة الحياة الدينية وتنوع المذاهب:

اهتم ابن كثير بتصوير التنوع العقدي والفقهي في أقاليم المشرق راصداً إياه من خلال تراجم العلماء وحوادث السنين، ومن خلال تحول المذاهب من مجرد أفكار إلى فعل مؤثر في حياة الناس من خلال ممارسات وطقوس افرزتها تلك المرحلة بتنوع مذاهبها، فكانت الاحتفالات بالمولد النبوي (الذي بدأ في عهد الملك المظفر) ومواكب عاشوراء[٥] ، وعقد مجالس المناظرة في المساجد الكبرى أو في حضرة الخلفاء والسلاطين، فضلاً عن دور الأوقاف الضخمة في تمويل المدارس والمستشفيات[٦] ، مما عزز من انتشار مذاهب معينة.

١. تتبع ابن كثير **انتشار المذاهب الأربعة** وسيادتها في الحياة الدينية في المشرق الاسلامي ودور ذلك في الاستقرار الاجتماعي، مركزاً على المذهب الشافعي الذي برز بقوة في بلاد الشام ومناطق من خراسان، وكان ابن كثير (وهو شافعي المذهب) يولي اهتماماً خاصاً لمدارس الشافعية وعلمائها وقد ألف في ذلك كتابه "طبقات الشافعية"[٧]، والمذهب الحنفي والذي كان المذهب الرسمي للدولة في فترات طويلة، خاصة في العراق وبلاد ما وراء النهر، ويظهر ذلك في ذكر ابن كثير لتعيين القضاة الأحناف في بغداد[٨]، أما المذهب الحنبلي فيركز ابن كثير على الحنابلة في بغداد ودمشق، ويصف دورهم وتميز علمائهم في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" والتصدي للبدع مع الإشارة إلى تأثير شيخه ابن تيمية في هذا الإطار[٩]، ويذكر علماءهم والاحداث التي مرت بهم، وأقوالهم في الكثير من القضايا التي اختلفوا بها مع المذاهب الأخرى وخاصة مع الأشاعرة كما ذكرناه في فتنة القشيري، ، فضلاً عن ذلك فقد نقل ابن كثير اخبار مطارحات فكرية حادة بين مدارس العقيدة والمتكلمين.

---

(١) المصدر نفسه، (٢٤/١١)
(٢) المصدر نفسه، (٤٧/١١)
(٣) المصدر نفسه، (٣٤/١١)
(٤) المصدر نفسه، (٤٨/١١، ٥١)
(٥) المصدر نفسه، (١٥٩/١٣)، (٤١/١٢)
(٦) المصدر نفسه، (٣٥٧/١١)، (٢٨٣/١٣)، (٣٥٩/١٤)
(٧) المصدر نفسه، (٥٦٦/١١، ٢٧٢)
(٨) المصدر نفسه، (٢٢٧ /١٠)، (١١٢/١١، ٣٤٨)، (٨٨/١٢)، (٣٦٦/١٣، ٤١٦)، (٥/١٤، ١٥، ٦٧).
(٩) المصدر نفسه، (٤٢/١٤، ٢٤٢)

٢. **موقفه من الفرق والمذاهب الأخرى :**وصف ابن كثير الحركات المذهبية وشيوخها في بلاد فارس وخراسان (مثل المعتزلة[١] ، والشيعة أو الرافضة[٢] ، والإسماعيلية[٣])، وذكر الكثير من أخبارهم أخبارهم وأراءهم ومناظراتهم وطقوسهم وافعالهم، وربط بين ظهور "البدع" وبين الاضطرابات الاجتماعية والفتن التي حدثت بينهم وبين المذاهب والفرق الأخرى في تلك الأقاليم[٤] ، وكان لا يتوانى في في أن يبدي رأيه فيهم ويبين وموقفه من افعالهم وعدها غلواً وضلالا ونفاقاً وخروجاً من الدين[٥] .

٣. **التصوف والزهد :**رصد ابن كثير صورة المتصوفة والزهاد في مشرق العالم الإسلامي، ووثق ظهور الخوانق أو الخانقات والربط (أماكن عبادة الصوفية) والاهتمام ببنائها[٦] وكيف أصبحت مراكزَ للحياة الروحية في المشرق، كما ميز بين التصوف القائم على الكتاب والسنة (مثل تصوف الجنيد البغدادي) [٧]وبين ما يراه انحرافاً (مثل مذهب ابن عربي أو الحلاج)[٨] ، ويسرد تفاصيل عما جرى لهم بسبب ذلك. ذلك.

المطلب الثاني: المؤسسات العلمية والحركة الفكرية

استعمل ابن كثير منهجا خاصا للتعريف بالمؤسسات العلمية من خلال ترجمة الشخصيات العلمية واستعراض سيرة شيوخها ومن تولى التدريس فيها، مما يعطي صورة عن المستوى العلمي للمؤسسة، وقد صنف ابن كثير في كتابه أنماطاً عدة للمؤسسات التي شكلت الوعي في ذلك العصر منها:

١. **المساجد والجوامع**: أكد ابن كثير أن المسجد ظل هو الأصل وعدّه المدرسة الكبرى، ويمكن ان نلمس ذلك في حديثه عن جامع المنصور في بغداد، الذي تم عزله عن جامع الصلاة والجمعة كي لا يدخله العامة، وكيف كان يغص بحلقات المحدثين والفقهاء واللغويين[٩] ، مصوراً المساجد بأنها المراكز التي انطلقت منها الحركة العلمية قبل ظهور المدارس المستقلة.

٢. **المدارس ودور العلم :**

يشير ابن كثير الى ان اول مدرسة وقفت على الفقهاء، هي الدار التي اشتراها الوزير أبو نصر سابور بن أزدشير في الكرخ، وأعاد تأهيلها، ونقل إليها كثيرًا من الكتب، ووقفها على الفقهاء فسمّاها دار العلم وكانت قبل النظامية بمدة طويلة، أما المدارس النظامية في بغداد ونيسابور فقد بوشر ببنائها سنة (٤٥٧هـ) وهدمت لأجلها دور كثيرة[١٠] ، ويظهر من وصفه لها التخصص فقد ركزت على المذهب الشافعي وقد أفاض في ذكر معيديها ومن تولى التدريس أو الجلوس للإفتاء فيها، كما ذكر الأوقاف المرصودة لها[١١]، ومساكن الطلاب، والمكتبات الملحقة بها، واهتمام الخلفاء بتجديدها ورفدها بالكتب [١٢].

كما ذكر المدرسة المستنصرية ووصفها بأنها لم تُبنَ مدرسة في الدنيا مثلها[١٣] ، والتي اكتمل بناؤها سنة (٦٣١هـ) لتكون مركزاً تعليمياً كبيراً يشمل المذاهب الفقهية الأربعة، إذ خُصص لكل مذهب مدرس وأربعة معيدين وإثنين وستين فقيهاً. كما ضمت قسماً لعلوم الحديث وآخر للطب يضم شيخاً وعشرة ممن يشتغلون

---

(١) المصدر نفسه، (٨٤/١٠)، (٣٦٩/١١)، (٨/١٢).
(٢) المصدر نفسه، (٣٦١/٩)، (١١/ ٢٧٦، ٢٨٨، ٣٧٣، ٣٩٨)، (١١٩/١٢، ١٢٧)، (١٩٢/١٣، ٣٣٥)، (١١٥/١٤).
(٣) المصدر نفسه، (٧١/١١، ١٧١، ٢٨٥)، (٢٩٤/١٢)، (٣٠٨/١٣)
(٤) ذكرنا ذلك في المبحث الخاص بالفتن.
(٥) المصدر نفسه، (٣٠٢/١١، ٣٠٥)، (٣٥/١٢، ١٩٦)، (٢٣٥/١٣)، (٢٨٧/١٤)
(٦) «خانقاه: وهو رباط الصوفية ومتعبدهم، فارسية أصلها خانه كاه؛ ينظر: الزَّبيدي، محمّد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، (٣٦/ ٣٧٤).
(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (١٢٩/١١)
(٨) المصدر نفسه، (١٨٢/١٣)، (١٥٢/١١- ١٦٣)
(٩) المصدر نفسه، (١٠٦/١٠)، (١١/١٢، ٤٦)
(١٠) المصدر نفسه، (٣٧٥/١١)، (١١٤/١١٢)
(١١) المصدر نفسه، (٤١/١٣، ١٦٣)
(١٢) المصدر نفسه، (١٣/ ٩): إشارة الى تجديد كتب المدرسة النظامية أيام الخليفة الناصر لدين الله.
(١٣) المصدر نفسه، (١٣/ ١٣٣):

بالطب، فضلاً عن مدرسة للأيتام، وقد كفلت المدرسة لجميع طلابها وكادرها المعيشة والسكن والنفقة والطعام[١] ، وهو جزء يسير مما كانت تدره أوقافها الكبيرة.

ويمكننا ان نستخلص من وصف ابن كثير بنية المؤسسة في تلك المدارس من خلال الهيكل الإداري الذي أورده في حديثه عنها فنجد المدرس والشيخ والمعيد والطالب والوقف، ونجد التمييز بين أقسام العلوم التي كانت تدرس هناك فلم تكن مقتصرة على العلوم الشرعية بل شملت العلوم اللسانية والعقلية والطبية.

كما ذكر ابن كثير اهتمام الخلفاء بإحياء وإعادة بناء المدارس المهملة او التي استولى عليها العوام كالمدرسة التاجية وهي قريبة الشبه من النظامية[٢] . ومن المدارس الأخرى التي ورد ذكرها في كتاب البداية والنهاية: المدرسة الأمينية بدمشق، والمدرسة الكمالية ببغداد، والمدرسة المعينية، ومدرسة الشافعية بالإسكندرية، والمدرسة المجاهدية، والمدرسة التي بناها الوزير ابن هبيرة بباب البصرة، والمدرسة الزنجبيلية والمدرسة الفروخ شاهية، والمدرسة الصاحبية بسفح قيسون، والمدرسة العزيزية، والمدرسة القيمازية، والمدرسة الجوزية بدمشق، والمدرسة الركنية، والمدرسة الضيائية، المدرسة النجيبية، المدرسة الجوهرية بدمشق وغيرها كثير [٣].

٣.رحلة العلماء في طلب العلم:

صور ابن كثير الحركة العلماء بين دمشق وبغداد ومدن خراسان (مثل مرو وبلخ)، مما جعل المشرق وحدة ثقافية واحدة رغم التمزق السياسي، وكان ينظر للرحلات في حياة العلماء شرطاً مهماً للوصول الى علوّ الإسناد وتحقيق الرسوخ العلمي، وكان غالباً ما يربط بين نضج العالِم وكثرة المدن التي زارها فيصفه بأنه "طاف البلاد"[٤]، أو "قَدِمَ الى المدينة الفلانية" أو "رحل الى بغداد واشتغل بها او سمع بها أو يكتب الحديث" أو "رحل إلى البلدان وسمع الكثير من المشايخ"، معتبراً أن المقيم في مدينته قد فاته من العلم بقدر ما فاته من آفاق السفر، وامتدح التبكير في طلب العلم منذ الصبا [٥] وكثرة السماع لبيان تنوع المدارس التي استقى منها العالم [٦] ، والإصرار على طلب العلم رغم الصعوبات التي واجهتهم من انقطاع السبل بسبب الحروب والفتن.

المطلب الثالث: البنية الاجتماعية والطبقية

إن تراجم ابن كثير وسرده للأحداث التاريخية يكشف عن رؤية عميقة لتكوين المجتمع وتفاعلاته الطبقية، وفي هذا المطلب سنعرض تحليلاً لمكونات المجتمع المشرقي من خلال نصوص "البداية والنهاية".

١. الطبقة الحاكمة:

يصنف ابن كثير هذه الطبقة بوضوح من خلال ذكره للخلفاء، السلاطين، والأمراء، وهم اصحاب السلطة والقوة والمال:

أ- **الخلفاء والوزراء :**يركز ابن كثير على دور الخليفة العباسي" كمركز للشرعية[٧] ، لكنه يبرز أيضاً سطوة الوزراء (مثل البرامكة) كطبقة إدارية غنية كانت تمتلك ثروات كبيرة[٨] ، ويتبعهم بمنزلة أدنى أهلهم وابناءهم وأولياء العهد والخاتونات من زوجات الخلفاء والسلاطين[٩] .

---

(١) المصدر نفسه، (١٦٣/١٣، ١٨٦)

(٢) المصدر نفسه، (١٣/ ٢١٣):

(٣) المصدر نفسه، (٢١٦،٢٦٩/١٢، ٢٨٢، ٢٨٨، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٨)، (١٦/١٣، ٢٩، ٣٧، ١٦٥، ١٩٨، ١٩٨، ٣٢٩، ٣٤٦)، وللمزيد عن هذه المدارس ينظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٩٦/١١، ١٣٧، ١٧٠، ١٦٦)، (١٥٤/١٢، ١٧٧، ٣١٦)، (١٨٢/١٣، ٢٨٥)

(٥) المصدر نفسه، (١٢٥/١٤)

(٦) المصدر نفسه، (٦٩/١١، ٣٠٥)، «محمد بن سعدان أبو جعفر الرازي، سمع من أكثر من خمسمائة شيخ» و «سمع من سمع من ألف شيخ» ... الخ

(٧) المصدر نفسه، (٩٠/١٢، ٢٩١)

(٨) المصدر نفسه، (٢٠٤/١٠، ٢٢١)

(٩) المصدر نفسه، (٣٣٩/١٢)، (٢١١/١٣)

ب- **العسكر والمماليك :**في الأجزاء المتعلقة بالعصر العباسي المتأخر والعصر المملوكي، يصور ابن كثير العساكر والأمراء كطبقة متميزة لها امتيازات إقطاعية يمنحها الملوك لهم(١) ، ويشير إلى الفجوة بين العسكر وبقية الرعية.

٢. طبقة العلماء والقضاة

لو تمعنا جيداً في نصوص البداية والنهاية لوجدنا أن هذه الطبقة هي الأقرب لقلب ابن كثير، وكان يدرج في حولياته تفاصيل عن حياة علماء الحديث والفقهاء والقضاة ورحلاتهم في طلب العلم مترجماً لسيرتهم شارحاً مكانتهم ودورهم الكبير في رعاية المجتمع والمحافظة على قيمه(٢) ، وقد تميزوا حسب ما صورهم صورهم بالآتي:

أ- **المكانة الاجتماعية**: يصور ابن كثير العلماء من خلال الحوادث التي ذكرها في تاريخه كسلطة شرعية وسيطة بين سلطة الخليفة والعامة وكان الخلفاء يشهدونهم على الأمور المهمة في الدولة والحكم والوصية والعهد(٣) ، ويسجل ابن كثير عشرات التراجم لعلماء بدأوا من طبقة فقيرة بسيطة ووصلوا بفضل بفضل العلم إلى منصب "قاضي القضاة" أو "شيخ الإسلام"(٤)، مما يشير الى انه قد رصد التحولات الاجتماعية بدقة وأن الطبقات الاجتماعية لم تكن مغلقة على أحد وأن العلم كان محركاً مهما في الصعود في سلّم الطبقات الاجتماعية.

ب- **النفوذ المادي:** يوثق ابن كثير كيف تحول العلماء إلى طبقة ذات نفوذ مالي عبر إدارتهم للأوقاف والمدارس والمناصب القضائية وقربهم من السلطة(٥) ، مما منحهم استقلالية نسبية عن السلطان.

٣. طبقة العامة

يطلق ابن كثير مصطلح "العامة "على من يراهم دون طبقة الحكام والامراء وهم الأكثرية من الناس(٦) أو (٦)أو "الغوغاء "أحياناً (عند حدوث الاضطرابات)(٧) ، أو يسميهم "الرعاع" لمن كان يتبع الفتن والبدع والجهل(٨) ، ويمكننا ان نميز من العامة كل من:

- **التجار وأرباب الحرف :**يظهرون في "البداية والنهاية" كقوة اقتصادية، ويصفهم بأنهم عمارة الأقاليم(٩)، ويروي عن حياتهم وقصصهم خاصة عند الحديث عن الأسواق(١٠) ، ثم يظهرهم كقوة اجتماعية لها مكانة مهمة وحضور في جميع المناسبات والاحداث (١١)، ومن أبناء التجار من تدرج حتى وزّره الخلفاء كما حصل في زمن المستنصر وابنه المستعصم(١٢)، من جهة أخرى يذكر أن أموالهم كانت

---

(١) المصدر نفسه، (٣٢٢/١٢، ٣٦٧، ٣٦٨، ٤٢٢)

(٢) المصدر نفسه، (١١/ ١١٥، ٤٠٨)، (١٥٣/١٢، ١٦٤، ٢٤٦، ٢٩٥)

(٣) المصدر نفسه، (١٧٨/١٠، ٣٠٧)، (١١/ ١٣، ١٥، ٧٥، ١١٨، ١٥٨، ٢٢٤، ٣٥٨)، (١٢/ ٣٥، ١٣٤، ٢٦١)، (٣٤٨/١٤، ٣٤٩، ٣٥٠)، (٣٦٢/١٤)

(٤) المصدر نفسه، (١٢/ ١٥٩): «أبو عبد الله الدامغاني القاضي .... وقد كان فقيرا في ابتداء طلبه، عليه أطمارٌ رثة، ثم صارت إليه الرياسة والقضاء»

(٥) المصدر نفسه، (٣٦٤/١٢)، (١٤/ ٢٦٩، ٣٦٦)

(٦) «يستخلص هذا التصنيف من وصفه بأن «نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة» المصدر نفسه، (١/ ٣١٨)

(٧) المصدر نفسه، (١٣/١١، ١٧)، (٥٢/١٤، ٢٣٨)

(٨) المصدر نفسه، (٢٤/١١)، (١١/١٢، ٢٠٤، ٣٥٤)، (٣٤٨/١٣، ٣٧٠)، (٨٢/١٤، ٢٩٤)

(٩) المصدر نفسه، (١٤٠/١٣)

(١٠) افاض ابن كثير في ذكر الأسواق واراب الحرف في حولياته والاحداث التي جرت عليهم، مثل سوق النجارين (١٣٩/١١)، باب الشعير (٣١٧/١١)، سوق الدقيق (٣٩٨/١١)، (١٧٦/١٤)، سوق العطر (٣٥/١٢)، سوق القلائين (٤٧/١٢)، سوق التبن (١٤٠/١٢)، سوق الريحانيين (١٧٥/١٢)، سوق العطارين (٣٦٦/١٢)، سوق الصاغة وسوق اللؤلؤ (١٣/ ١٦٤)، سوق النحاسين (٢٥١/١٣)، سوق الخيل (٣٧٣/١٣)، (١١٢/١٤، ١٨٢،١٧٦)، سوق الحريريين (٣٨٩/١٣، ٣٩٥)، سوق السلاح (٣٩٩/١٣)، (١٦٥/١٤)، سوق الثلاثاء (١١٣/١٤)، سوق القشاشيين (٢١٥/١٤)، سوق القطانين (٢٩٠/١٤)، سوق التمارين (٢٩١/١٤)، الوراقين واللبادين (٨٤/١٤).

(١١) المصدر نفسه، (٤١١/١٢)، (٣٥٧/١٤)،

(١٢) المصدر نفسه، (١٩٣/١٣)

عرضة للنهب والسرقة والمصادرة أيام الفتن والحروب وكانوا يختفون ويهربون خوفاً من ذلك[١] ، أو يؤخذ منهم لتقوية الجيوش والانفاق عليها[٢] وكان في نهاية أحداث السنوات يوثق لوفيات المشهورين منهم كشيوخ الحرف او التجار الصُّدُق الأخيار الأمناء، ممن يسارعون في الخيرات[٣] .

٤. **الفلاحون:** وهم الطبقة الأقل ظهوراً في التراجم ولكنها الأكثر حضوراً في سنوات القحط وأيام الكوارث والفيضانات ويشير الى موتهم بأعداد كبيرة [٤]، كما يوثق ابن كثير معاناتهم من الضرائب والمكوس ووقوعهم تحت الخراج والجزية وتعرضهم للنهب والسرقات والسخرة والغصب[٥] .

٥. الفئات المهمشة والمتمردة (الشطار والعيارين والحرافيش)

برع ابن كثير في تصوير الطبقة المتمردة التي كانت تظهر بوضوح في فترات ضعف الدولة ومنهم العيارون إذ يصفهم ابن كثير كقوة منظمة في بغداد، فكان يشتد ويتعاظم أمرهم فينهبون ويقتلون وكانوا يحتمون بدور العامة من الناس فيتعرض الناس وأملاكهم للأذى [٦] وأحياناً كانوا يتجاسرون على أمور كثيرة ويفرضون الأموال على الأغنياء، مما يعكس السبب الطبقي في هذا الصراع، ويذكر ابن كثير جزءاً من براعتهم وحيلهم في القتال[٧] حتى ان البساسيري عندما قامت فتنته، قد جمعهم وأطمعهم في نهب دار الخلافة[٨] ، كما يذكر ابن كثير فئة أخرى من المتمردين وهم الحرافيش الذين تميزوا بالنهب وتخريب ما تصل أيديهم اليه من مال ومن زرع ومبانٍ[٩] .

٦. **أهل الذمة :**يوثق ابن كثير وجودهم ضمن التكوين الاجتماعي لبلدان المشرق الاسلامي، مع التركيز على أدوارهم الإدارية مثل عملهم (كتاب الدواوين) أو الطبية، والتقلبات الاجتماعية التي كانت تطرأ على وضعهم تبعاً لسياسة السلطان، ومنهم من دخل الإسلام وتبوأ مناصب في الدولة أو أصبح ذا مكانة في المجتمع[١٠] ، كما صور ابن كثير التعايش (أو الصراع)[١١] الاجتماعي مع المسيحيين والمجوس، وشروط أهل الذمة التي كانت تنظم العلاقة بينهم وبين المسلمين[١٢] .

٧. **صورة المرأة في المشرق الاسلامي :**

قدّم ابن كثير صورة غنية للمرأة في العصر العباسي، تراوحت بين دورها السياسي في القصور، ومساهمتها الاجتماعية والخيرية، وصولاً إلى مكانتها العلمية، كما رصد مواقف مميزة بينت دور النساء (صاحبات الأوقاف، والعالمات، أو زوجات السلاطين) في الحياة الاجتماعية، ومن الأمثلة البارزة تصويره للخيزران (والدة هارون الرشيد) كواحدة من أقوى نساء العصر العباسي، وأشار إلى ثروتها الضخمة ودورها في توسعة الحرم المكي[١٣] ، وكذلك تُعد زبيدة بنت جعفر (زوجة الرشيد) النموذج الأبرز للمرأة الصالحة في تأريخ ابن كثير، حيث ركز على ما عندها من المال والجمال وعلى ديانتها

---

(١) المصدر نفسه، (١٤/١١، ٢٤٠٦٢، ٢٤٠، ٢٦١)، (١٧/١٢، ١٠١)، (٩٩/١٣)، (٩/١٤، ١٤٨، ١٧١، ٢٨١)
(٢) المصدر نفسه، (٢٢٧/١٤)
(٣) المصدر نفسه، (١٧/١٢، ٣٠٥)، (٢٩/١٣)، (١١٩/١٤، ١٣٩، ١٩٣، ١٩٨، ٢٦٢)
(٤) المصدر نفسه، (٩٨/١٢)، (١٣٥/١٤)
(٥) المصدر نفسه، (٧٣/٧)، (٣١٤/١١)، (٨٠/١٤)
(٦) المصدر نفسه، (٣١٧/١١، ٣٧٥، ٣٧٩، ٤٠٩)، (٢٣/١٢، ٢٥، ٣٩، ٤٤، ٤٧، ٤٩، ٢٦٦)
(٧) المصدر نفسه، (١٠/ ٢٦٠): «وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأمين، قتل فيها خلق من أصحاب طاهر كان الرجل من العيارين والحرافشة من البغاددة يأتي عريانا ومعه بارية مقيرة، وتحت كتفه مخلاة فيها حجارة، فإذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم اتقاه بباريته فلا يؤذيه، وإذا اقترب منه رماه بحجر في المقلاع أصابه، فهزموهم لذلك»
(٨) المصدر نفسه، (٩٦/١٢) وقد ذكرنا فتنة البساسيري في مبحث الفتن.
(٩) المصدر نفسه، (١٣/ ٣٧٠)، (١٤/ ٢٨، ١١٣، ٢٩٨)، والحرافيش: مفردها حرفوش، أي الرعاع والدهماء وضعاف وضعاف الخلق، ينظر المصدر نفسه حاشية (٣٧٠/١٣).
(١٠) المصدر نفسه، (٣٨٢/١٣)، (٩٩/١٤، ٣٦٠)
(١١) المصدر نفسه، (١٠/١٤، ١١٣، ٢١٧)
(١٢) المصدر نفسه، (١٩/١٤)
(١٣) المصدر نفسه، (٣٢٠/٢)، (٧٨/٨)، (١٦٨/١٠، ١٧١، ١٧٥): يذكر ابن كثير انها "قد اشترت الدار المشهورة بها بمكة المعروفة بدار الخيزران، فزادتها في المسجد الحرام وكان مغل ضياعها في كل سنة ألف ألف وستين ألفا" ينظر: ابن كثير، المصدر نفسه: (١٧٥/١٠)

وعملها الخيري وصدقاتها وبرها، وكان يسمع في قصرها دويّ كدوي النحل من قراءة القرآن [١]، وفي فترات ضعف الخلافة، صور ابن كثير كيف أصبح الحكم بيد النساء، كما في حال (شغب) الملقبة بالسيدة وهي ام الخليفة المقتدر بالله العباسي[٢]، وبرزت المرأة في المشرق كمرجع علمي يقصده الرجال ويسمع منها الحديث مما يعكس تقبل المجتمع آنذاك لتصدي المرأة لمثل هذه العلوم[٣].

المطلب الرابع: الملامح العمرانية والبيئية

يرسم ابن كثير صورة للمكان لا تقل أهمية عن الإنسان، وقد أفاض في وصف الحواضر الكبرى للخلافة الإسلامية ووثق لتاريخ عمرانها ومعالمها ومن ساهم فيها:

١. **العمران وبناء المدن الكبرى**: رأى ابن كثير في بناء المدن تعبيراً عن قوة الدولة واستقرارها، وقد ركز بشكل مفصل على مدينتي بغداد ودمشق ونيسابور كأهم معالم المشرق في العصر العباسي، إلا انه لم يغفل الحديث عن بقية المدن ووصفها، وبهذا رسم ابن كثير صورة للمشرق العباسي تجمع بين فخامة القصور العباسية والجوامع و المارستانات[٤]، وجمال الطبيعة النهرية، وتطور هذا العمران وتأثره وتأثره بالظروف البيئية والسياسية عبر القرون، فضلا عن صلابة حدودها ومتانة أسوارها وتحصيناتها [٥]، ومن الصور البارزة التي وردت في "البداية والنهاية":

أ- وصف ابن كثير في حوادث سنة (١٤٥ و١٤٦ه) بناء بغداد على يد الخليفة المنصور واختيار موضعها، وذكر أنها رسمت له بالرماد مدورة، وكشف عن طالعها لدى المنجمين، وجعل قصر الامارة والجامع في وسطها، وجعل لها أبواباً، ووثق أيضاً المقاييس العمرانية ومقدار ما أنفقه في عمارة المدينة، ووصف جسر بغداد الشهير على دجلة بأبيات من الشعر[٦] ، كما ذكر قيام عضد الدولة البويهي بتجديد دار دار

الخلافة [٧]، وكعادته يروي ابن كثير ما ورد في الآثار والحديث عن بغداد فهي ليس في الدنيا مثلها، ويصورها مركزاً تجبى إليها خزائن الأرض[٨] .

ب- أشار ابن كثير الى نشأة مدينة سامراء (سر من رأى) في سنة (٢٢٠هـ) على يد الخليفة المعتصم بالله عندما خرج من بغداد ونزل في القاطول[٩] ، ومن ثم بنى مدينته هناك.

ج- وبصفته دمشقياً، أفاض ابن كثير في وصف عمرانها، وخاصة الجامع الأموي[١٠] ، ووصف أبواب المدينة ومنها باب الساعات وربطه بمواقع تاريخية قديمة[١١] ، كما أشار إلى أن جدران الجامع بنيت على قواعد قديمة جداً تعود لزمن النبي هود عليه السلام[١٢] ، وأشار الى عملية تحويل أجزاء من

---

(١) المصدر نفسه، (٢٤٢/١٠، ٢٩٧)
(٢) المصدر نفسه، (١٩٢/١١، ١٩٩)
(٣) ذكر ابن كثير شهدة بنت المحدث أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري ثم البغدادي، الإبري الجهة، المعمرة، الكاتبة، مسندة العراق، فخر النساء، ينظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، (٢٠/ ٥٤٢)، وكذلك ينظر، ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٢١٢/١٣) وفيه لم ترد الإشارة اليها باسمها، لكن الاشارة وردت في الطبعة الأخرى لكتاب البداية والنهاية: وهي طبعة دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه مجموعة من المحققين، (١٥/ ٢٧٨).
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٢٧٤/١٠)، (١٧/١٢)، ومن أفضل ما وصفه ابن كثير هو جامع دمشق (١٧٠/٩)، (١١٩/١٢، ١٢٠)
(٥) سور مالطية، ينظر المصدر السابق، (٥٤/١٠، ٧٩)، سور المصيصة (٨٣/١٠)، (٢٨٦/١١)
(٦) المصدر نفسه، (١٠٤/١٠، ١٠٣، ١٠٧، ١٠٩)
(٧) المصدر نفسه، (٣١٧/١١)
(٨) المصدر نفسه، (١٠٨/١٠)، (١١/ ٢٧٥):
(٩) المصدر نفسه، (٣١٠/١٠): القاطول: «اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة وهو نهر كان في موضع سامرّا قبل أن تعمّر وكان الرشيد أو من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصرا سماه أبا الجند» ينظر: الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، (٤/ ٢٩٧).
(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، (٨٥/٩)
(١١) المصدر نفسه، (١٧٥/٩، ١٨٠)، (٣٦٦/١٣)
(١٢) المصدر نفسه، (١٧٨/٩)

الكنائس القديمة إلى مساجد[١] ، وتحدث عن التخطيط العمراني لدمشق وتاريخ بنائها[٢] وجَمال قصورها قصورها وبساتينها وغوطتها.

د- وعند حديثه عن عمران مدينة نيسابور أشار إلى العلامة المميزة فيها وهي وجود الرباطات الضخمة، ومنها رباط أبو سعد النيسابوري الذي وصفه بأنه كان ضخماً جداً "يدخل من بابه الجمل براكبه"[٣] ، وأنها كانت تضم المدرسة النظامية، ووصف كيف كانت الأسواق تُغلق حزناً على العلماء، مما يدل على كثافة الأسواق وتنظيمها حول المراكز العلمية[٤] ، في حوادث سنة (618هـ) وصف ابن كثير الفاجعة التي حلت بعمرانها على يد المغول، حيث ذكر أنهم خربوا خراسان ومدنها وقتلوا سكانها وهدموا دورها ومساجدها حتى لم يبقَ منها شيء[٥] .

٢. المعالم البيئية والموارد المائية:

أ- ارتبط الوصف البيئي عند ابن كثير بمدى توفر المياه وخضرة الأرض، وكان نهرا دجلة والفرات هما أبطال المشهد البيئي في المشرق الإسلامي، فعلى ضفافهما جرت الاحداث الكبرى والمعارك وبنيت المدن وبهما تغزل الشعراء[٦] ، كما صور ابن كثير الأنهار كشرايين للحياة[٧] ، وصور الجسور كقطع معمارية تجمّل البيئة الحضرية[٨] ، وكان يكثر من الاستشهاد بالشعر لتوثيق الجمال البيئي.

ب- من جهة أخرى فقد اهتم بتدوين الكوارث البيئية وتأثيرها فلم يغفل الجوانب القاسية من البيئة كالفيضانات والزلازل وانقطاع المطر وتأثيرها على العمران، وكيف كانت هذه الأحداث تغير من سلوك الناس وتدفعهم نحو الالتجاء الى الله والتوبة أو إلى التمرد[٩] .

الخاتمة والاستنتاجات:

في الختام يمكننا القول إن الدراسة قامت بالكشف عن الرؤية التي قدمها ابن كثير والصورة التي رسمها لهذا الجزء الحيوي من العالم الإسلامي، فهو لم يكن مجرد مؤرخ يسرد الحوادث، بل كان ناقداً ومحللاً استطاع أن يرسم خارطة مكانية وحضارية للمشرق تعكس اطلاعه وعمق فهمه لعصره وما يدور فيه، واستيعابه لما نقله عن سابقيه.

وقد خلص البحث الى النتائج التالية:

١. اتبع ابن كثير في تأريخه للمشرق منهجاً يجمع بين الرؤية العقدية (ربط الحوادث بالروايات والنصوص الدينية) وبين نظام الحوليات التاريخي، واعتمد على مزيج من المصادر الحولية (كالطبري وابن الأثير)، وكتب التراجم، بالإضافة إلى مشاهداته الشخصية ومعاصرته للأحداث في دمشق.

٢. ميز ابن كثير بين مناطق المشرق الإسلامي وحكامها من خلال مقاييسه التي اتبعها في رصد وتقييم الحوادث والأشخاص والمسميات التي أطلقها عليهم.

٣. عالج البحث وجود ازدواجية في إدارة المشرق بين الشرعية المتمثلة في الخليفة العباسي ببغداد، والقوة والنفوذ المتمثلة في السلاطين وأمراء المشرق.

٤. صنف ابن كثير مدن المشرق وظيفياً، معتبراً مناطق منها ثغوراً استراتيجية لحماية قلب العالم الإسلامي من هجمات الأتراك والمغول، ومنها ما كانت حواضر للعلم والعلماء والعمران، ومنها ما كانت مصدر المدد والجيوش.

---

(١) المصدر نفسه، (٨٥/٩)
(٢) المصدر نفسه، (٣٦/١)، (٦٧/٧)
(٣) المصدر نفسه، (١٥٥/١٢)
(٤) المصدر نفسه، (١٥٧/١٢)
(٥) المصدر نفسه، (٩٨/١٣، ٩٩)
(٦) المصدر نفسه، (٢٤٤/٢)، (١٠٦/١٠)
(٧) افاض ابن كثير في ذكر تأثير زيادة النهر وفيضانه او نقص مائه على الحياة في ذلك الوقت. ينظر: المصدر نفسه، زيادة النهر (٩٠/١١، ١٣٤، ٢١٧، ٢٢٨، ٣٢٨، ٣٩٥، ٤٧/١٢، ٥٩، ٩٨، ١٢٠، ١٣٣، ١٤٠، ٢٠٤، ٢١٠، ٢٩٩، ٣٣٨، ١٣٥/١٤)، نقص الأنهار (٣٠٣/١١، ٣٩٣، ٣٣/١٢، ١١٥).
(٨) المصدر نفسه، (١٠٦/١٠)
(٩) حول الزلازل ينظر المصدر نفسه، (١٨٨/١٠، ٢٠٩)، (٧/١١، ٣٦، ١٠٧)، (٢٢٣/١٢، ٢٣٣)، الفيضانات والغرق والغرق (٣٢٨/١١)، (١٣٣/١٢)، (٢٢٢/١٣)، (١٣٥/١٤)، انقطاع المطر (٢٢٦/١١، ٢٣٧)، (١٠٦/١٤).

٥. قدم ابن كثير مادة توثيقية هامة للفواجع التي حلت بالمشرق، لاسيما الغزو الصليبي والمغولي، حيث لم يكتفِ بذكر القتلى، بل رصد "الموت العمراني" للمدن التي خُربت مساجدها ودورها، أيام الحروب والفتن وموجات الوباء والجفاف.

٦. كشف البحث عن اهتمام ابن كثير بتوثيق المؤسسات العلمية والاجتماعية كالمدرسة النظامية والجوامع في بغداد ودمشق والرباطات في نيسابور، مما يعكس حيوية الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية في تلك الأقاليم قبل حصول الكوارث السياسية.

المصادر:

١. ابن العراقي، ولى الدين، أبو زرعة، أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين، (٧٦٢ - ٨٢٦ هـ)، الذيل على العبر في خبر من عبر (وهو تذييل لابن العراقي، على ذيل والده على العبر)، حققه وعلق عليه: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولي، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٢. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط [ت ١٤٣٨ هـ]، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط [ت ١٤٢٥ هـ]، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

٣. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي، الطنجي، أبو عبد الله، (ت ٧٧٩هـ) رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، الناشر: أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.

٤. ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، (ت ٨٧٤هـ)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥. ابن حنبل، أحمد بن محمد (١٦٤ - ٢٤١ هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٦. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت نحو ٢٨٠هـ)، المسالك والممالك، الناشر: دار صادر أفست ليدن، بيروت، ١٨٨٩ م.

٧. ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، كتاب الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، ١٨٩١م.

٨. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م.

٩. .....، البداية والنهاية، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه مجموعة من المحققين، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

١٠. .....، اختصار علوم الحديث، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية.

١١. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل- أبو الأشبال أحمد محمد شاكر، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، عناية: مكتب الأجهوري للبحث العلمي وتحقيق التراث، إشراف: د. علي محمد ونيس، المشرف العلمي لمكتب الأجهوري، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ..

١٢. ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين (ت ٨٤٢ هـ)، الرد الوافر، المحقق: زهير الشاويش [ت ١٤٣٤ هـ]، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣.

١٣. أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، المحقق: إبراهيم الزيبق، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م.

١٤. أبو قمر، احسان عبد القادر، والصرايرة، سليمان، ابن كثير ومنهجه في كتابه البداية والنهاية، مجلة مؤتة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثامن والثلاثون، جامعة مؤتة، كلية العلوم الاجتماعية، العدد الثالث، ٢٠٢٣.
١٥. الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (٢١٠ - ٣٠٧ هـ)، مسند أبي يعلى الموصلي، ومعه: رحمات الملأ الأعلى بتخريج مسند أبي يعلى، تخريج وتعليق: سعيد بن محمد السناري، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
١٦. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦ م.
١٧. الثامري، احسان ذنون، الحياة العلمية زمن السامانيين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
١٨. الحسيني، شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن الدمشقي (ت ٧٦٥ هـ)، ذيل تذكرة الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، مطبوع بآخر: "تذكرة الحفاظ" للذهبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م.
١٩. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م.
٢٠. الدميني، مسفر عزم الله، مقاييس نقد متون السنة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ه- ١٩٨٤م، الرياض.
٢١. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، تذكرة الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م.
٢٢. .....، سير أعلام النبلاء، خرج أحاديثه واعتنى به: محمد أيمن الشبراوي، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
٢٣. الذهبي، محمد السيد حسين (ت ١٣٩٨هـ)، التفسير والمفسرون، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.
٢٤. الزَّبيدي، محمّد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت.
٢٥. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ)، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢.
٢٦. السنيدي، عبد الرحمن بن علي، منهجية التأليف في السيرة عند ابن كثير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
٢٧. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، طبقات الحفاظ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.
٢٨. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، طبقات الحفاظ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣.
٢٩. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٣٠. صلاح الدين، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر (ت ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، الجزء: ١ – ١٩٧٣، الجزء: ٢، ٣، ٤- ١٩٧٤.
٣١. الطائي، سعاد هادي حسن و العنبكي، شيماء فاضل عبد الحميد، دراسات في تاريخ المشرق الإسلامي (ق ٣-٧هـ/٩-١٣م)، دار ومكتبة عدنان، بغداد، الطبعة الأولى ٢٠٢٠ م.

٣٢. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد خان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد/ الهند، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
٣٣. .....
.....، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: عبد الله أحمد بن مديحج العلوي الحسيني الحضرمي، الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن – الهند، الطبعة: الأولى (١٣٨٧ - ١٣٩٦ هـ) = (١٩٦٧ - ١٩٧٦ م).
٣٤. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت ١٧٠هـ)، كتاب العين، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
٣٥. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت ١٧٠هـ)، كتاب العين، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
٣٦. الكتاني، أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي (ت ١٣٤٥ هـ)، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، المحقق: محمد المنتصر بن محمد الزمزمي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: السادسة ١٤٢١ هـ-٢٠٠٠ م.
٣٧. اللاحم، سليمان بن إبراهيم، منهج ابن كثير في التفسير، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.
٣٨. مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.
٣٩. المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الناشر: مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١/١٩٩١.
٤٠. نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، الناشر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة: الثانية [كُتِبَتْ مقدمتُها ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م]، وصَوَّرَتْها: دار الدعوة بإستانبول، ودار الفكر ببيروت، وغيرهما كثير.
٤١. الندوي، مسعود الرحمن خان، الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابة التاريخ، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م.
٤٢. النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.